حملاته الشرقية: بداية الكفاح ضد الصفويين

بدأ السلطان سليمان القانوني في الاهتمام بتطورات الأوضاع على حدود دولته الشرقية، والتي كانت تؤرّق ذهنه منذ فترة طويلة، وذلك بعد أن أرسى دعائم لحلول جذرية للقضايا التي كانت تشغل باله على الحدود الغربية. وكان السلطان القانوني يأمل في القضاء بشكل نهائي على الدولة الصفوية التي تحوّلت إلى "قضية الشرق" بالنسبة للدولة العثمانية إبّان عهد والده السلطان سليم الأول، وكانت تُوجَّه إليها أصابع الاتهام في حركات التمرد التى حدثت في الآونة الأخيرة. وفي الواقع، فإن السلطان كان قد أحيا الغزوات الجهادية ضد الغرب الذي لم تُنظَّم ضده حملات عسكرية بمعنى الكلمة منذ فترة طويلة. والآن فقد حان الدور على مهمة حماية الكيان الإسلامي في مواجهة تهديدات الصفويين الذين يشكّلون المصدر الأساسي للمشاكل لحامية عرين الإسلام. ويبدو أن هذه المبادرة كانت تنطوي على تغييرات مهمة ليس في المجال العسكري فحسب، بل في الوقت نفسه على تحوّلات جديرة بالملاحظة في المظهر العام للدولة العثمانية على المستويَيْن الديني والسياسي، إذ إن زيادة الحساسية الدينية ستمهد السبيل مع مرور الوقت لظهور اتجاه من شأنه التأثير على الآليات البيروقراطية والسياسية في المنطقة بأسرها. فكان السلطان سليمان يرى نفسه الممثل الأعظم للعالم الإسلامي السُنِّي، وعليه، فقد وضع نصب عينيه التخلّص من الدولة الصفوية، ووضع هذه المهمة على رأس أولوياته خلال فترة حكمه، وذلك كنتيجة طبيعية لكون الصفويين شكّلوا أكبر التهديدات أمام ترسيخ مفهوم الدولة السُنيّة، كما أنهم نجحوا في إقامة دولة مترامية الأطراف على الأراضي الإيرانية بفضل أيديولوجياتهم السياسية والدينية الجديرة بالاهتمام. ولهذا السبب، فلا شك أن السلطان القانوني قد دبّر خططًا محكَمة في هذا السياق مع إبراهيم بَاشَا.

لقد استمرت المشاكل تطفو على سطح العلاقات العثمانية - الصفوية حتى بعد معركة جَالْدِيرَانْ بين الجانبين. كما أن العثمانيين أنزلوا ضربة قاسية على آمال الشاه "إسماعيل الصفوي" في الوصول إلى الأناضول بعد النصر الذي حققوه في جَالْدِيرَانْ. إلا أن هذه الضربة لم تستطع الحيلولة دون إصرار الصفويين على مواصلة استفزازاتهم للكيان العثماني. أضف إلى ذلك أن الشاه إسماعيل ساورته آمالٌ جديدة عقب وفاة السلطان سليم الأول، ولم يتورّع عن الإقدام على بعض المحاولات المناهضة للعثمانيين، ومنها أنه قدّم الدعم لثورة الغزالي، كما ذكرنا آنفًا، وسعى للاستفادة من تلك الأحداث بُغية الإعداد للإغارة على حدود الدولة العثمانية الشرقية، إلا أن وأْد ثورة "الغزالي"، ووصول نبأ استعداداته العسكرية إلى مسامع الدولة العثمانية، وإرسال فرهاد بَاشَا إلى الحدود الشرقية، كل ذلك دفعه مضطرًا إلى التخلّي عن هذه الفكرة. بالإضافة إلى ذلك، فإن تحريضات الدولة الصفوية تمخّض عنها اندلاع حركات تمرّدية واسعة النطاق في الأناضول، لاسيما أثناء معركة "مُوهَاجْ". ومن ناحية أخرى، عمد الشاه إسماعيل إلى إيفاد الرسل إلى الأناضول من جهة، ومن جهة أخرى نظّم حملة عسكرية إلى جورجيا أثناء انشغال العثمانيين بفتوحاتهم في بَلْغرَاد. فاستطاع إخضاع مدن جورجيا الشرقية لسيطرته بمساعدة السلطان "دِيوْ علي (*Div Ali*)" الرومي[٤٥]، وبسط نفوذه في مناطق "شِيرْوَانْشَاهْ (*Şirvanşah*)" إبراهيم الثاني"[٤٦] وحسين بك[٤٧]، أي في مدينتي "شَمَاهِي (*Şemahı*)"[٤٨] و"شَكِي (*Şeki*)"[٤٩].

(٤٥) السلطان دِيوْ علي الرومي: قائد عسكري إيراني بزغ نجمه خلال فترة حكم الشاه "طهماسب الأول". (المترجم)

(٤٦) شيروانشاه إبراهيم الثاني: أحد حكّام دولة الشيروانشاهان في أذربيجان. (المترجم)

(٤٧) حسين بك: أحد أعيان وحكّام مدينة شيروان الواقعة شرق أذربيجان. (المترجم)

(٤٨) شماهي: مدينة أذربيجانية. (المترجم)

(٤٩) شكي: مدينة تقع شمال غرب أذربيجان. (المترجم)

وبينما كان مشغولًا بهذه الأمور، أرسل وفدًا من السفراء لتهنئة العثمانيين على نجاحاتهم في غزوتي "بَلْغِرَاد" و"رودس". بيد أن الشاه إسماعيل ذاته كان قد رأى أنه لا داعي لمباركة جلوس السلطان سليمان على العرش. وأما الآن فقد دفعته فتوحات الدولة العثمانية في أوروبا وانشغاله بأمور دولته، إلى التظاهر بهذه الصداقة غير الحقيقية. إلا أن وفدًا صفويًّا مكونًا من ٥٠٠ شخص وصل إلى إسطنبول، لم يلقَ حينها الاهتمام اللازم من قِبل الوزراء العثمانيين الذين كانوا على علم تام بالوجه الحقيقي للصفويين، وسُمح لعشرين منهم فقط بالدخول إلى إسطنبول، وأما الباقي فأُجبروا على الانتظار في منطقة "أُوسْكُودَارْ". هذا إضافةً إلى أن السلطان سليمان لم يهنئ الشاه "طهماسب الأول" الذي تولّى مقاليد الحكم في إيران خلفًا لوالده إسماعيل الذي وافته المنية يوم ٢٣ أيار/مايو ١٥٢٤م.

وفي هذه الفترة الحسّاسة التي اتسمت فيها العلاقات العثمانية - الصفوية بالتوتّر، بدأت المشاكل تطفو على السطح في إيران إبّان السنوات الأولى لحكم "طهماسب الأول" الذي اعتلى عرش إيران وهو لايزال فتى يافعًا في الحادية عشرة من عمره. فشرع الأمير الجورجي "ليفيند (*Levend*)" أو "ليفان خان (*Lewan Han*)" في استغلال فرصة جلوس طفل على عرش إيران، وأعلن استقلاله، وقاد حملة عسكرية إلى مدينة "شَكِي" مستغلًّا موت الشاه إسماعيل، وهزم "شِيرْوَانْشَاهْ (*Şirvanşah*) حسين بَكْ، وأرداه قتيلًا. ومن ناحية أخرى، ثار الأوزبكيون، وبدؤوا في الانقضاض على مدينة "خُرَاسَانْ (*Horasan*)". هذا إلى جانب أن الصفويين عيّنوا "السلطان دِيوْعلي الرومي" في منصب أمير الأمراء لمواجهة أي خطر يأتي من الجانب العثماني، ونصّبوه في منصب المحافظ في منطقة "سعد شُوكُورُو (*Sâd Çukuru*)"(٥٠) الشهيرة.

---

(٥٠) سعد شوكورو: منطقة منخفضة تقع في أقصى شرق الأناضول على الحدود التركية - الأرمينية. (المترجم)

وقد مهد السبيل لخروج السلطان العثماني في حملة عسكرية على إيران هذه الأوضاع المضطربة، وإرسال كل من: العلماء الأتراك المحليين الذين ما زالوا يحافظون على الهوية السنية في تبريز، وحاكم "جِيلَانْ (*Gilan*)" رسالة إليه سرًّا، وطلبوا فيها أن يشُنّ السلطان حربًا على إيران. وتسبب هذا الإجراء في إرسال السلطان سليمان رسالة إلى حاكم "جِيلَانْ" يطلب تزويده بمعلومات عن إيران من جهة، بينما دفعه من جهة أخرى لإرسال خطاب تهديدي شديد اللهجة إلى الشاه "طهماسب الأول". وجاء بخطاب التهديد هذا الذي يوجد محفوظًا في أرشيف "فريدون بك (*Feridun Bey*)" الذي كان يجمع خطابات السلاطين العثمانيين، أن السلطان سليمان بعث رجلًا إلى الشاه "طهماسب الأول" يسأله عن أسباب عدم إظهار ولائه للدولة العثمانية، واستطرد بقوله: إنه سيبني سرادقه في تبريز وأذربيجان، وربما أيضًا في سمرقند وخراسان، وإنه كان منشغلًا بفتوحاته في بَلْغِرَاد ورودس، وأما الآن فهو مستعد لقيادة حملة نحو إيران، وإن لم يترك طهماسب الأول "الشاهية"(٥١) ويعود إلى "المشيخة"؛ فإنه ينوي إلى قتله أينما وجده. وبهذه الطريقة، رغب السلطان سليمان في جمع كافة ممالك العالم التركيّ تحت راية واحدة حتى يصل إلى تركستان السُنِّية، واستئصال شأفة خطر الصفويين واقتلاعه من جذوره.

وقد أرسل السلطان سليمان فرمانًا يحمل تاريخ ١٥٢٥م إلى حاكم ولاية "ديار بكر" خُسْرَوْ بَاشَا أبلغه فيه أنه وصله خطابٌ من علماء تبريز من أهل السُنِّة، وأنه عازمٌ على قيادة حملة عسكرية نحو إيران، وأمره فيه أن يفتح ما يعن له من مناطق العدو حتي يصله هو. ومن هذا المنطلق، فقد فكّر السلطان سليمان في قيادة حملة عسكرية تجاه الشرق قبل الخروج إلى غزوة "مُوهَاجْ" عام ١٥٢٦م، ولكن الأوضاع على الجبهة الغربية في المَجَر لم تمنحه فرصة لتنفيذ هذه الفكرة.

---

(٥١) أي: منصب الملك. (المترجم)

وبعد أن توصّل إلى اتفاق بوقف القتال مع "آل هابسبورج"، وقعت حادثتان شكّلتا السبب الظاهري للحملة العسكرية ضد الصفويين. أحد هذه الأحداث وقعت في بَلْغِرَاد، والأخرى في مدينة "بِتْلِيسْ (*Bitlis*)" على الحدود العثمانية - الإيرانية:

إن مدينة بغداد التي ضمها الشاه إسماعيل إلى حظيرة ملكه عام ١٥٠٨، استطاع "نُوهُوذ علي سلطان أُوغْلُو ذو الفقار (*Nohud Ali Sultanoğlu Zülfikar*)" -وهو من عشيرة تركمان الموصل- السيطرة عليها في عهد الشاه "طهماسب الأول". فبينما كان "ذو الفقار" حاكمًا على مدينة "كلار"(٥٢) عام ١٥٢٨م، أقدم على قتل عمّه "إبراهيم خان"، الذي عيّنته الدولة الصفوية حاكمًا على بغداد، في هجوم مباغت عندما خرج إلى المراعي في نزهة دون حراسة، وذلك يوم ٢٩ أيار/مايو ١٥٢٨م، وأحكم سيطرته على بغداد بعد حصار دام أربعين يومًا. ولأن "ذو الفقار خان" وَالِي بغداد، وصاحب لقب "خليفة الخلفاء"، أيقن تمامًا أن الصفويين لن يصمتوا أمام هذه الواقعة، وبعد فترة طلب المدد من العثمانيين، وأرسل إليهم مفاتيح بغداد. كما أمر بقراءة خطبة الجمعة، وسكّ العملة باسم السلطان سليمان، كإعلان رسمي عن تبعيته للدولة العثمانية. وفي هذه الأثناء كان العثمانيون منشغلين بحصار فيينا (١٥٢٩م)، مما حال دون إمداد بغداد بالمساعدات الفعلية، وسهّل مهمة الشاه "طهماسب الأول" للهجوم على بغداد لاستعادتها مرة أخرى مستفيدًا من هذه الأوضاع. فحاصرت القوات التي أرسلها "طهماسب الأول" مدينة بغداد، وأما "ذو الفقار خان" فحاول الدفاع عن المدينة باستماتة منتظرًا دعم القوات العثمانية. إلا أنه راح ضحية الخيانة، حيث لقي حتفه على يد أحد أقاربه يُدعى علي بَكْ. وبهذه الطريقة عادت بغداد مجددًا إلى الصفويين. واستطاع "طهماسب الأول" السيطرة على كافة المدن العراقية بعد إسقاط بغداد، وعيَّن "سيف الدين أوغلو تكلو محمد بك" حاكمًا على بغداد.

---

(٥٢) كلار: مدينة تقع في شمال العراق. (المترجم)

وأما السبب الآخر والرئيسي لاندلاع الحرب فكان استغاثة "عُلَمَا خَانْ (*Ulama Han*)" -أحد سادة إيران- بالعثمانيين، وطلب حاكم "بِتْلِيسْ""شرف خَانْ" -أحد أمراء العثمانيين- المدد من الصفويين. فأما "عُلَمَا خَانْ" فتحوّل إلى طائفة "القِزِلْبَاشْ (*Kızılbaş*)"(٥٣) بعد أن كان من "تُرْكْمَانْ التكّة"(٥٤)، وشارك في ثورة "شاهقولو بابا تكّة لي" فيما بين عامي ١٥١٠ - ١٥١١م، ثم فرّ هاربًا إلى جوار الشاه إسماعيل، وتقلّد العديد من المناصب. وأما في زمان "طهماسب الأول"، فكان يقيم في تبريز برفقة "تُرْكْمَان التكّة" بصفته أمير أمراء "أَذْرَبَيْجَانْ (*Azerbaycan*)". وعقب مقتل رئيس وزراء الشاه "جُوهَا (*Çuha*)" سلطان في أصفهان على يد "حسين بَكْ الشامي"، اعتبر "عُلَمَا خان" نفسه مرشحًا لهذا المنصب الشاغر. وبالرغم من ذلك، فما إن نما إلى علم "تركمان التكّة" خبر مقتل "جُوهَا سلطان"، تدفق جزء منهم بسرعة إلى قزوين، وهزموا الشاميين هناك، ونجحوا في خطف حسين بك وأسْره. ثم عُيّن "جوها سلطان أوغلو كباد" في منصب أمير الأمراء، إلا أن الأوضاع لم تهدأ بعد ذلك، وبدأت حركة تمرد تظهر مجددًا في إيران ضد "تركمان التكّة". وشرعت قبائل "أُوسْطَاجَلُو (*Ustacalu*)"، و"ذُو القَادِر"، و"رُومْلُو (*Rumlu*)"، و"أَفْشَارْلُو (*Afşarlu*)" في الاتحاد معًا، بدعم من الشاه "طهماسب الأول"، ضد "تركمان التكّة"، وهمّوا إلى قتل العديد من نبلاء "تركمان التكّة" وزينة قومهم. ولم يستطع "عُلَمَا خان" أن يقبل هذه الأحداث المدبرة ضد عشيرته، فثار ضد "طهماسب الأول" في خراسان، لكنه اضطر لطلب العون من العثمانيين بعد أن فشل في حشد القوات اللازمة لإنجاح عصيانه. ووصل "عُلَمَا خان" إلى مدينة "وَانْ (*Van*)" -التي كانت ضمن منطقة حكمه- وأوصل طلبه إلى الباب العالي في إسطنبول بواسطة أمير مدينة "ديار بكر". ومن جانبها، بعثت حكومة إسطنبول إلى حاكم بِتْلِيسْ "شرف خان" تطلب منه مساعدة "عُلَمَا خان" في السفر إلى إسطنبول مع عائلته.

---

(٥٣) قِزِلْبَاشْ: وتعني بالتركية "ذوو الرؤوس الحمراء"، هم مجموعة من الجنود الشيعة الذين عينتهم الدولة الصفوية في منتصف القرن الخامس عشر. (المترجم)

(٥٤) تركمان التكة: إحدى قبائل التركمان الشهيرة. (المترجم)

وقَدِم "شرف بَكْ" إلى قرية "هَارْقُومْ (Harküm)" في "وَانْ" بصحبة ٢٠ من رجاله، والتقى هناك مع "عُلَمَا خان" الذي كان يقيم بهذه القرية، وفي النهاية لجأ "علما خان" إلى الأراضي العثمانية، ووصل إلى إسطنبول، وقابل الوزراء في الديوان، ولم يتورّع عن التلفّظ بكلمات مناهضة لحاكم بِتْلِيسْ "شرف خان". وأخبرهم بأن حاكم بِتْلِيسْ يميل إلى شاه إيران، حتى إنه حاول التدبير لقتله -أي قتل "عُلَمَا خان"-.

وبناءً عليه، أمر السلطان سليمان "عُلَمَا خان" بتحويل بِتْلِيسْ من إقطاعية إلى إمارة، عندما استقبله قبيل حصاره لمدينة "كُوزيج (Köszeg)" المَجَرية، ومنحه مدينة "حصن كيف (Hısnıkeyf)" المطلة على نهر دجلة، إضافةً إلى ٢٠ صرّة من الدنانير. وما إن سمع "شرف خان" هذا النبأ، حتى استدعى بعضًا من أمراء الأكراد وأوكل إليهم حماية القلاع المهمة بالمدينة، واصطحب نفرًا من رجاله إلى تبريز، ولجأ إلى الشاه "طهماسب الأول" يطلب منه العون.

وقد أعرض "شرف خان" بوجهه عن الصفويين فيما مضي بتشجيع من المؤرخ ورجل الدولة العثماني "إدريس البِيتْلِيسِي" الذي اشتهر كثيرًا في عهد السلطان سليم الأول.

وعليه، فقد اعترف "شرف خان" بحكم العثمانيين على بِتْلِيسْ، ومُنح هو وعائلته المدينة كإرث يحكمونها واحدًا تلو الآخر. وكانت هذه العائلة تمتلك نفوذًا قويًا في بِتْلِيسْ التي أخذت الطابع الكردي منذ عصر الدولة الأيوبية، كما كان لديها الكثير من المناصرين والمؤيدين في تلك المنطقة. ولهذا، شكّل لجوء "شرف خان" إلى الصفويين خطرًا داهمًا على الدولة العثمانية. ولذا فقد أُرسل "عُلَمَا بَاشَا" عام ١٥٣٢م إلى بِتْلِيسْ على رأس عدد من جنود مدينة "ذُو الْقَادِر" بولاية "ديار بكر". فحاصر "عُلَمَا بَاشَا" مدينة بِتْلِيسْ، وأمر المدافع بقصف حصنها. وقد انهارت جدران حصن بِتْلِيسْ، وبينما كانت المدينة على وشك السقوط في يده، جاء خبر وصول الشاه "طهماسب الأول" لمساعدة حاكم بِتْلِيسْ. وفي الوقت الذي كان فيه "شرف خان" يسير نحو بِتْلِيسْ ومعه القوات

الصفوية، اقترب الشاه من مدينة "أَخْلَاطْ (*Ahlat*)"؛ إحدى مدن بِتْلِيسْ. فاضطر "عُلَمَا بَاشَا" لفك الحصار عن بِتْلِيسْ، والانسحاب إلى "ديار بكر". وفي هذه الأثناء، استقبل الشاه "شرف خان" في "أخلاط"، وكافأه بمنحه لقب "شرف خان" رسميًا. كما منحه الشاه إمارة كردستان بتاريخ ٢١ أيلول/سبتمبر ١٥٣٢م. وأعطاه أيضًا مدن أَخْلَاطْ، و"مُوشْ (*Muş*)"، و"خنس (*Hınıs*)"، إلى جانب بِتْلِيسْ. وكان من الأسباب المهمة التي دفعت العثمانيين لإعلان الحرب على الدولة الصفوية، فرض الشاه "طهماسب الأول" سيطرته على بعض الإمارات الحدودية التابعة للدولة العثمانية شرق الأناضول، ومن ناحية أخرى حصاره لمدينة بغداد والاستيلاء عليها بعد أن كانت خاضعة للعثمانيين وتُقرأ خطبة الجمعة بها باسم السلطان العثماني. كما صدر مرسومٌ من الديوان العثماني بتجهيز حملة عسكرية ضد إيران، عقب مفاوضات ومباحثات بين المسؤولين العثمانيين.

أطول سفر للسلطان سليمان القانوني: المُضي نحو "العراقيْن"[٥٥]

عندما صدر قرار السفر، شرع السلطان سليمان في إرسال الخطابات إلى كافة ممالكه، وبدأ بحشد جيوشه. بالإضافة إلى ذلك قام بإصدار فرمان بإرسال الأسلحة والمدافع إلى "ديار بكر" مسبقًا، واستعداد الحكام والقادة للسفر. وتحرك الصدر الأعظم إبراهيم بَاشَا من "أُوسْكُودَارْ" يرافقه ٣٠٠٠ من جنود الإِنْكِشَارِيَة (٢ ربيع الآخر ٩٤٠هـ / ٢١ تشرين الأول/أكتوبر ١٥٣٣م). وقبل أن يصل إبراهيم بَاشَا إلى "قونيا (*Konya*)"[٥٦]، جاءه نفرٌ من رجال "عُلَمَا" وهم يحملون رأس "شرف خان". وكان "شرف خان" قد استعاد بلاده بدعم من الصفويين، كما ذكرناه آنفًا.

---

(٥٥) العراقيْن: مصطلح استخدم في الفترة ما بين القرنين الحادي عشر والسادس عشر الميلاديين على منطقتي عراق العرب (المنطقة السهلية على حوض نهري دجلة والفرات)، وعراق العجم (المنطقة الجبلية)، وكان يفصل بينهما سلسلة جبال "زاجروس". (المترجم)

(٥٦) قونيا: مدينة تقع وسط الأناضول بالقرب من العاصمة أنقرة حاليًا. (المترجم)

وكان الشاه "طهماسب الأول" قد أوكل إدارة جبهة أذربيجان إلى "شرف خان" في مواجهة العثمانيين، بينما كان في طريقه نحو "خُرَاسَانْ (*Horasan*)"، مطالبًا إيّاه بالتعامل بودٍ مع العثمانيين خلال فترة غيابه، ووظّف بعض أمراء القزلباش لمساعدته إلا أن "شرف خان" لم يُصغِ لنصائح الشاه، وأقدم على جملة من المحاولات للانتقام من أمراء الأكراد الذين قدّموا الدعم إلى "عُلَمَا بَاشَا" و"فيل يعقوب بَاشَا"؛ أثناء حصار بِتْلِيسْ. فسار نحو مدينة "خيزان" في بِتْلِيسْ، وحاصرها. وبناءً على هذه التطورات، سارع كلٌ من أمير "ديار بكر" "فِيلْ يعقوب بَاشَا"، الذي صدر إليه أمر التوجّه إلى بِتْلِيسْ للمرة الثانية، و"عُلَمَا بَاشَا"، الذي عُيّن أميرًا على "بِتْلِيسْ" لنجدة أمير "خِيزَانْ"، وتوجّها من هناك لمجابهة "شرف خان" الذي رفع الحصار عن "خيزان"، وانسحب إلى بِتْلِيسْ. وبعد أن اصطف الأمراء الأكراد في المنطقة إلى جانب "عُلَمَا بَاشَا" ضد "شرف خان"، واجه القوات العثمانية بالقوات التي حصل عليها من الصفويين والأمراء الأكراد التابعين له يوم ٢٧ أيلول/سبتمبر١٥٣٣م عند موقع قلعة "تاتيك"، وقد ضعفت قواته بعد أن انتقل "محمودي أميرة بَكْ"، الذي كان يتبعه ويقف بجنوده على يساره، إلى صفوف العثمانيين الذين أداروا ظهرهم نحو الجبل وصاروا بمأمن أمام قوات العدو. ولقي "شرف خان" مصرعه إثر إصابته بطلق ناري، وعلمه بأن الأمراء الأكراد تجمعوا حول "شمس الدين الثالث" نجل "شرف خان"، وأعلنوا جميعًا ولاءهم التام للدولة العثمانية.

وقد تلقّى إبراهيم بَاشَا رأس "شرف خان" المقطوع وخطاب "عُلَمَا بَاشَا" عند مكان يُدعى "جينارلي"، ومنح شمس الدين بَكْ مدينة بِتْلِيسْ بصفتها إرثًا له ولأبنائه من بعده، كما أطلع السلطان على هذه الأحداث، وأخبره بأنه سيكافئ "عُلَمَا بَاشَا" على ما قدّمه من خدمات جليلة. ثم أكمل إبراهيم بَاشَا طريقه حتى وصل إلى "قونيا"، وتحرك متوجهًا إلى حلب ووصلها بتاريخ ٢٧ كانون الأول/ديسمبر١٥٣٣م. ورأى أنه يتحتم عليهم إقامة القوات العثمانية في حلب طوال فصل الشتاء، نظرًا لبرودة الجو القارس. وبينما كان إبراهيم بَاشَا يقضي الشتاء في حلب، أخضع لسيطرة العثمانيين مدن "اخلاط"، و"عادلجواز"، و"أرجيش"،

و"وَانْ" الواقعة في محيط بحيرة "وَانْ" بواسطة "عُلَمَا بَاشَا" الذي كان يقضي الشتاء بالقرب من "وَانْ"، وذلك عن طريق مبدأ "استمالة حكامها عبر إنفاق الذهب". وأما الشاه "طهماسب الأول" الذي قضى صيف عام ١٥٣٣م في حملة عسكرية ضد الأوزبك في مدينة "بلخ (*Belh*)"، فقد تراجع عن الحرب مع الأوزبك بعد أن فقد السيطرة على بِتْلِيسْ وخضوع "وَانْ" والقلاع المجاورة لها للعثمانيين، وأعدّ العدّة للحرب. إلا أنه كان يفضل عدم مواجهة قوة العثمانيين العسكرية الساحقة بل يسعى لهدم معنوياتهم من خلال تخريب الطرق التي يسلكونها وخوض حرب استنزافية ضدهم.

كان الصدر الأعظم إبراهيم بَاشَا يرنو إلى مغادرة حلب إلى بغداد للاستيلاء عليها. ومن أجل هذا الغرض أمر بحشد جنود ولاية الأناضول في مدينة "آميد"(٥٧). وتحرك من حلب ووصل إلى "آميد" يوم ١٤ أيار/مايو. وبينما كان متواجدًا في "آميد"، بدأت حشود جنود ولايات الأناضول، وقارامان، والروم، ودُو الْقَادِر في الالتحاق به أفواجًا. كما أن حاكم مدينة بِتْلِيسْ شمس الدين بَكْ قدِم إلى "ديار بكر" بالهدايا، والتحق بخدمة إبراهيم بَاشَا، وشارك في هذه الحملة. واستمر تجمع الجيش في "آميد" لفترة تراوحت بين ٤٠ و ٥٠ يومًا، فيما كان "عُلَمَا بَاشَا" ينتظر في تلك الأثناء بالقرب من "وَانْ" استعدادًا للتوجّه إلى "تبريز".

كان إبراهيم بَاشَا يريد التحرك من "ديار بكر" إلى "الموصل (*Musul*)" تمهيدًا لدخول بغداد. إلا أنه وفي ذلك الحين تقرر السير نحو "تبريز" بفكرة طرحها "عُلَمَا بَاشَا"، وبدعم كامل من "إِسْكَنْدَرْ شلبي" الذي كان يتولّى منصب أمين الخزانة في روملي، وخدم في وظيفة الياورية لدى الصدر الأعظم. ذلك لأن "عُلَمَا بَاشَا" كان قد أخبره بأن الشاه غادر "تبريز" متوجهًا صوب "خراسان"، وليس لديه نية للعودة، وعليه فبإمكانهم إخضاع أذربيجان لسيطرتهم بسهولة ويسر. وأما إبراهيم بَاشَا فقد وافق على تلك الفكرة بتأثير من الشخصيات

---

(٥٧) مدينة "ديار بكر" اليوم. (المترجم)

البارزة التي كانت تنتسب إلى الصفويين، وانضمت لاحقًا لصف العثمانيين، وكذلك "إِسْكَنْدَرْ شلبي"، إلا أنه أعرب عن مخاوفه في هذا الصدد، وذكر أنه لا يوجد جنودٌ يمكن قتالهم في "تبريز"، ولهذا السبب فسيكون عيبًا الإغارة على بلدٍ فارغ لا يجد من يدافع عنه، مشيرًا إلى أنهم لن يستطيعوا إخضاع "تبريز" للسيادة العثمانية بمعنى الكلمة، وأما "بغداد" فلم تكن قد خضعت للولاء الصفوى بشكل كامل، ولذلك فإن الاستيلاء عليها سيكون أيسر من وجهة نظره. لكن فكرة إبراهيم بَاشَا الصائبة هذه قوبلت بفكرة ترى أن السيطرة على "تبريز" ستسهم في سقوط بغداد تلقائيًا في أيدي العثمانيين. وقد كانت هذه الفكرة، والإغراء الذي يتسم به لقب "فاتح أذربيجان" اللامع دافعًا كي يغير إبراهيم بَاشَا فكره ويغزو "تبريز".

وفي نهاية الأمر، انطلق إبراهيم بَاشَا من مدينة "آميد" مركز ولاية "ديار بكر" نحو "تبريز". وبينما كان الجيش يقترب من مدينة "وَانْ"، أعلن حاكمها الصفوي إذعانه للعثمانيين، وأرسل مفاتيح المدينة إليهم (١١ ذي الحجة ٩٤٠هـ - ٢٣ حزيران/يونيو ١٥٣٤م). هذا إلى جانب أن الجيش العثماني أخضع لسيطرته العديد من القلاع المجاورة حتى وصل إلى مدينة "وَانْ". ومع سيطرة العثمانيين على "وَانْ"، صاروا يتمتعون بمكانة بارزة للغاية في شرق الأناضول. وكما سنرى لاحقًا، فإن هذه القلعة ستلعب دورًا هامًا في العلاقات العثمانية - الصفوية في المستقبل. ومنح إبراهيم بَاشَا مدينة "وَانْ" إلى أمير دمشق "خُسْرَوْ بَاشَا". كما قدّم "أميرة بَكْ محمودي"؛ حاكم قلعة "سيافان (*Siyavan*)" ("أُورْطَانْجَه (*Ortanca*)") مفاتيح القلعة إلى العثمانيين. وقد اعترفت العديد من القلاع بالسيادة العثمانية خلال الأيام اللاحقة. ووصل الجيش العثماني إلى مدينة "بِينْجُولْ (*Bingöl*)"، ومكث بها ٢٠ يومًا. وقد التحق بالجيش العثماني بعض الأمراء الأكراد في "بِينْجُولْ"، وتحركوا صوب "تبريز". واستطاع الجيش العثماني دخول تبريز دون قتال بتاريخ ١ المحرم ٩٤١هـ (١٣ تموز/يوليو ١٥٣٤م). واستقبل حشدٌ من أهالي "تبريز" الجيشَ العثماني بينما كان في طريقه نحو المدينة. وأما إبراهيم بَاشَا فآثر عدم دخول المدينة، ونصب خيمته

في سهل "سعد آباد". وعيّن نفرًا من الجنود لحماية الأمن العام في المدينة، وأسكنهم هناك، كما وظّف قاضيًا بها، وأمر بترميم المكان الذي يوجد به ضريح "غازان خان" أحد ملوك "الإيلخانيين"، وأنقاض القلعة القديمة المحيطة به، وعيّن بعض الجنود داخلها أيضًا.

وبينما كان إبراهيم بَاشَا في "تبريز"، وقعت معركة "قِزْلْجَادَاغْ (*Kızılcadağ*)". وقد تعرّضت قوة عثمانية قوامها ١٠ آلاف جندي لخسائر فادحة في تلك المعركة. وقد تمت هذه الحملة العسكرية بقرار من "إِسْكَنْدَرْ شَلَبِي" و"عُلَمَا بَاشَا"، إذ عرضا الأمرَ على إبراهيم بَاشَا وقالا له:

"إن الوكر الرئيسي للصوص وقاطعي الطريق في هذا البلد هو مرعى قِزْلْجَادَاغْ، ومن السهولة بمكان الوصول إلى هناك وتدمير قواهم بمساعدة بعضٍ من الجنود".

وعليه حصلا على موافقة من البَاشَا للقيام بهذه الحملة. ووفق رواية أحد المؤرخين العثمانيين، فقد أوضح "عُلَمَا بَاشَا" بقوله:

"هي بلدٌ مزدهر كثيرًا، ادخلوا أنتم لاغتنام الغنائم، وسأكون أنا حارسًا عليها من الخارج".

وقد وضع الجنود العثمانيين في مأزق كبير، وتسبب في هلاكهم.

وقد استولى إبراهيم بَاشَا على دولة أذربيجان بالسيطرة على قلاع "آلِينْجَا (*Alınca*)" القريبة من "تبريز"، و"جُوغَرْجينليك (*Güğercinlik*)" الواقعة شمال غرب بحيرة "أُرْمِيَة (*Urmiye*)"، و"صَارِي قُورْجَان (*Sarı-kurgan*)" الواقعة في الجنوب الشرقي وغيرها من الأماكن، وعيّن واليًا على كل قلعة من هذه القلاع... حُوّلت "تبريز" بعد ذلك إلى إمارة ومُنحت لـ"عُلَمَا بَاشَا"، وأُعطي شقيقه "ولي" إقليم "نَاخِيتشِيفَان (*Nahcıvan*)"، ومُنحت "مَرَاغَه (*Meraga*)" إلى "ولي جان" أحد "تركمان التكّة"، وأُعطيت مقاطعات "أَرْدَبِيلْ (*Erdebil*)"، و"سَرَاوْ (*Serav*)"، و"مسكين" إلى علي بَكْ. كما بعث إبراهيم بَاشَا خطابًا

إلى السلطان قصّ خلاله كيفية دخول "تبريز" والاستيلاء عليها، وعلى ما حولها من مدن، وذكر أنهم حوّلوا مدن "هَمَدَانْ (*Hemedan*)"، و"كَاشَانْ (*Kâşân*)"، و"قُمْ (*Kum*)"، و"شَافْ (*Şav*)"، و"الرَيْ (*Rey*)"، و"شَهْرِيَارْ (*Şehriyar*)" التابعة لعراق العجم إلى مقاطعات بصورة نظرية، وعيّنوا على كل واحدة منها أميرًا بشكل رمزي. وفي هذه الأثناء، وبينما كان الجيش العثماني في "تبريز"، أعلن حاكم "جِيلَانْ" مظفّر خَانْ ولاءه للدولة العثمانية ومعه ١٠ آلاف جندي مشاة، كما أعلن كلٌّ من "مراد بَكْ"؛ أحد أفراد قبيلة "آق قُويُونْلُولَرْ (*Akkoyunlular*)" التركمانية، و"سلطان خليل الثاني"؛ أحد شاهات شيروان، ولاءهم للعثمانيين كذلك.

زيادة نفوذ "خُرّم سلطان"

كان السلطان سليمان يتواجد في العاصمة إسطنبول بينما كان إبراهيم بَاشَا لا يزال في "ديار بكر"، وكان يسعى لإتمام استعداداته للسفر. إلا أنه رغب في تنفيذ بعض المهام الضرورية في غياب إبراهيم بَاشَا، وكان أبرز تلك المهام هي إرسال أكبر أبنائه مصطفى إلى إحدى الولايات لمزاولة المهام الإدارية، بحسب ما تقتضيه قواعد الأسرة العثمانية. وأدّى غياب إبراهيم بَاشَا عن العاصمة إلى تحمّل السلطان سليمان كافة المسؤوليات الهامة بنفسه، كما كان الحال في الأمور الحاسمة السالفة. وربما أن مصطفى ووالدته "مَاهِي دَوْرَانْ" وإبراهيم بَاشَا قد شكّلوا جبهة مناهضة لزوجة والده الثانية "خُرّم سلطان" والفريق المعاون لها. إلا أن أحدًا لم يكن بإمكانه ألبتّة تحديد ماهية هذه الجبهة بالاعتماد على المصادر المتاحة في هذا الصدد. وقد منح إيفاد مصطفى إلى ولاية "مَانِيسَا"؛ التي يُرسل إليها فقط المرشحون الأقوياء لخلافة سلاطين آل عثمان، أملًا كبيرًا لوالدته "مَاهِي دَوْرَانْ" وأنصاره حول تعيينه كوليّ للعهد في المستقبل. وبإمكاننا الاعتقاد بأن والدة السلطان "حفصة سلطان" كان لها تأثيرٌ عظيم في اتخاذ هذا القرار. إلا أن مغادرة مصطفى ووالدته التي سيتوجّب عليها مرافقة ابنها، سيثلج صدر "خُرّم سلطان" كثيرًا، وسيجعلها الآمرة الناهية

في القصر. وكان وجود "حفصة سلطان" داخل القصر يبدو وكأنه سيقف حائلًا أمام تحقيق تطلعاتها التي ترنو إليها ولو بشكل مؤقت. ولربما كانت "مَاهِي دَوْرَانْ" تنظر إلى تواجد "حفصة سلطان" داخل القصر على أنه عزاء بالنسبة لها بينما كانت هي في طريقها نحو "مَانِيسَا" برفقة ابنها. وانطلق الأمير مصطفى من إسطنبول صوب "مَانِيسَا" ترافقه والدته ونفرٌ من رجاله في شهر شعبان من عام ٩٤٠هـ (شباط/فبراير ١٥٣٤م).

ويمكننا القول إن السلطان كان يشعر بالفخر لخروج ابنه الأكبر إلى إدارة إحدى الولايات. إلا أن فرحته تلك لم تدم طويلًا، إذ توفِّيتْ أمه حفصة سلطان بتاريخ ٤ رمضان ٩٤٠هـ (١٩ آذار/مارس ١٥٣٤م)، فحزن عليها كثيرًا. وأسهمت هذه الأوضاع في جعل "خُرّم سلطان" صاحبة الكلمة الأولى والوحيدة في جناح حَرَم القصر. فكانت قد سُرّت للغاية لمغادرة "مَاهِي دَوْرَانْ" القصر، كما أكسبتها وفاة والدة السلطان بعد ذلك مباشرة، قوةً ونفوذًا كبيرين داخل القصر، وتخلصت من ثلاثة منافسين هامين كانوا يقفون في طريقها. وكان إبراهيم بَاشَا في السفر، وكانت زوجته تخبره بكل ما يحدث في القصر. وكما يُفهم من خطاباتهما المتبادلة، فإن جناح الحَرَم والقصر بصفة عامة كانا يشهدان تطورات كبيرة في تلك الأثناء، وكانت الأجواء المحيطة توحي بتوتر الأوضاع بكل ما تحمله الكلمة من معنى. فقد عبّر إبراهيم بَاشَا في أحد خطاباته التي أرسلها إلى زوجته عن رغبته في ابتعادها عن القصر. وكانت كل هذه الأحداث تعني أن "خُرّم سلطان" أعلنت انتصارها بشكل واضح. وقد وقف السلطان سليمان إلى جانب "خُرّم سلطان" خلال هذه التطورات. حتّى ربما كان سقوط إبراهيم بَاشَا من نظره قد حدث في ذلك التوقيت بالضبط. وفي هذه الأثناء، استقبل السلطان "بَرْبَرُوسْ خَيْرَ الدين بَاشَا" الذي وفد إلى إسطنبول لقيادة الأسطول العثماني.

خدمات "بَرْبَرُوسْ خير الدين بَاشَا" ووصوله إلى إسطنبول

اسمه الحقيقي هو "خضر"، وكان يمارس أعمال القرصنة في البحر الأبيض المتوسط برفقة شقيقه الأكبر "أُورُوجْ رَئِيسْ (*Oruç Reis*)"، حتى ذاعت شهرتهما بتخويف السفن المسيحية العابرة لمياه المتوسط. وهذان الأخوان هما ابنا فارس يُدعى "يعقوب" كان والده وجده فارسيْن من أصحاب الإقطاعيات. وقد سكن "يعقوب" جزيرة "مِيدِلِّي (*Midilli*)" اليونانية بعد أن فتحها العثمانيون. وكان لديه ولدان آخران يحملان اسمي "إسحق"، و"إلياس". وقد شغف ابنه أُورُوجْ بركوب البحر، وبدأ في ممارسة القرصنة، وضم أخيه "إلياس" إلى جانبه. ثم بعد ذلك شرع "خضر" في مزاولة القرصنة هو الآخر على متن سفينة منفصلة. وكان "أُورُوجْ رئيس" يزاول أنشطته في سواحل شرق البحر الأبيض المتوسط، أي سواحل الأناضول، وسوريا، ومصر، وأما "خضر" فعمد إلى ممارسة أنشطته في بحر "إِيجَه" وسواحل مدينة "سَلَانِيكْ" اليونانية. وبينما كان "أُورُوجْ رئيس" في إحدى رحلاته عائدًا من طرابلس الشام، تعرّض لإغارة بعض فرسان جزيرة "رودس"، فسقط أسيرًا في أيديهم، فيما لقي شقيقه "إلياس" مصرعه. ونقل فرسان رودس "أُورُوجْ رئيس" وسجنوه في قلعة مدينة "بُودْرُمْ" الساحلية جنوب غرب الأناضول، لكنه نجا من الأسر بعد ذلك على يد أخيه "خضر". وبعد أن خرج من الأسر، عمل "أُورُوجْ رئيس" لدى خدمة المماليك لفترة. أعقب ذلك حصوله على إذْن من حاكم ولاية "أنطاليا" الأمير "قورقوت" لمعاودة ممارسة أنشطة القرصنة في البحر المتوسط، وانطلق ليأخذ ثأره من فرسان "رودس". ثم بعد ذلك، انتقل لمزاولة نشاطاته بالقرب من سواحل إيطاليا، بناءً على توصية من "قُورْقُودْ (*Korkud*)" الذي نُصِّب حاكمًا على مدينة "صَارُوخَانْ". ثم ذهب إلى السواحل المصرية بعد أن أقدم الأمير "قورقوت" على الدخول في صراع على السلطنة، واتحد مع شقيقه "خضر رئيس" الذي كان يعمل في المنطقة الواقعة بين "طرابلس الغرب (*Trablusgarb*)" وتونس.

وبدأ الشقيقان في التحرّك جنبًا إلى جنب، وأسّسا أسطولًا صغيرًا، واختارا السواحل التونسية والجزائرية كساحة لمزاولة أعمالهما. وقدّما الهدايا إلى سلطان تونس "أبو عبد الله محمد" المنحدر من أسرة "بني حفص"، وطلبا منه منحهما ميناء "حلق الوادي" (*Halkulvâd*) (*Gouletta*) كمحل لإقامتهما في تونس. وقد وافق سلطان تونس على هذا المطلب شريطة الحصول على خُمس الغنائم التي يغنماها.

وقد اكتسب الأخوان أُورُوجْ و"خضر" شهرة واسعة النطاق، وبدآ في جمع القراصنة الأتراك المشهورين حولهما، بحيث كان من بين هؤلاء القراصنة "مصلح الدين قورد أوغلو (*Kurdoğlu*)" و"محيي الدين" ابن شقيق "كمال رئيس". وشرع الأخوان أُورُوجْ و"خضر" في العمل في مجال القرصنة البحرية لحسابهما الخاص، ولم يُهملا إرسال الهدايا أيضًا إلى السلطان العثماني. كما أهدى "أُورُوجْ رئيس" الهدايا إلى السلطان سليم الأول بواسطة "محيي الدين رئيس" عام ١٥١٥م. وفي مقابل ذلك، أرسل السلطان إليهما سفينتين مجهّزتين بكافة المعدات. وعليه فقد دعّم الأخوان أُورُوجْ و"خضر" وضعيهما، وشرعا في ترسيخ دعائم سيطرتهما على سواحل الجزائر. وكان الإسبان هم أكثر الأطراف انزعاجًا من هذه التطورات، فرغبوا في طرد القراصنة الأتراك من هذه المنطقة. حتى إنهم فكّروا بجدية في احتلال الجزائر.

وقد لجأ عدد من الإسبان المقيمين في الجزائر إلى جزيرة "بينون (*Penon*)" المقابلة للساحل الجزائري، وطلبوا العون من ملك إسبانيا "كَارْل الخامس". لكن ملك إسبانيا فشل في إخراج القراصنة الأتراك من الجزائر. وحاول الإسبان مجددًا التخلص من القراصنة الأتراك، فتحالفوا مع أمير مدينة "تلمسان"، وأرسلوه ليواجه "أُورُوجْ رئيس"، فوصل هذا النبأ مبكرًا إلى أُورُوجْ فاتخذ تدابيره وأخضع "تلمسان" لسيطرته. فهرع أميرها إلى الإسبان، وحصل منهم على الدعم العسكري الذي حاصر به المدينة. ودافع أُورُوجْ عن المدينة سبعة أشهر متواصلة، وخرج في غزوة للتخلص من حصار الجنود المسلمين من أهل

شـمال إفريقيا التابعين للإسبان وأمير "تلمسان"، إلا أنه أُصيب بجرحيْن، وسقط شهيدًا عام ١٥١٨م.

انتقـل حكـم الجزائر إلى "خضر رئيس" إثر وفاة "أُورُوجْ رئيس". ومن الآن فلاحقًا، فإن الأوربيين سـيذكرون "خضر رئيـس" بلقب "بَرْبَرُوسْ (*Barbaros*)" الـذي يعتبـر الصيغـة المفككة من اسـم "بابا أُورُوجْ"، وسـيطوي التاريخ اسـم "خضر"، وسيذيع صيت لقب "بَرْبَرُوسْ خَيْرَ الدين". كان "خضر رئيس" يتواجد في الجزائر بينما لقي أخوه أُورُوجْ مصرعه، وقد بدأ الإسبان والعرب المتتسبون لأميـر "تلمسـان" فـي إعداد العـدة للانطلاق نحـو الجزائر التي يقيـم بها خضر رئيـس، بعـد أن اسـتولوا على "تلمسـان". وفي تلـك الأثنـاء، كان "خضر" يعدّ العـدّة لصد هجـوم الأعداء. وحاصر الإسـبان الجزائر من البـر والبحر. ونجح بَرْبَرُوسْ في الصمود أمامهم، وتمكّن من تكبيدهم خسائر فادحة خلال الهجوم الـذي قامـوا به بقوة عسـكرية قوامهـا ٢٠ ألف جنـدي، حتى إنه لـم ينج منهم سـوى ٣-٤ آلاف من الجنود. هذا إضافة إلى أن أمير تلمسـان "أبو حمو الثالث (*Ebu Hamu.III*)" الـذي شـن هجومًا برّيًـا اضطر للهروب من ميـدان المعركة حيـن تعـرض لهزيمـة سـاحقة. إلا أنه وعلى الرغـم من كافة هـذه الانتصارات التي حققها بَرْبَرُوسْ، فإنه آثر الرجوع إلى الإدارة العثمانية لعدم شعوره بالأمان فـي مواجهـة هجمـات العناصـر المحليـة والإسـبان، ولتيقنـه من أنه لـن يقدر علـى تحمّـل اعتداءاتهـم مـع مرور الوقت. وللسـبب ذاته، أرسـل وفـدًا برفقة أربـع سـفن وعدد من الأسرى كهدية إلى السلطان العثماني عام ١٥١٩م. فامتنّ السلطان العثماني وقتها "سليم الأول" من هذا التصرف، فبعث إليه بقفطان أمير الأمـراء، وعـدد كبير من السـفن الحربية ومسـتلزماتها، إضافةً إلـى ٢-٣ آلاف جندي. كما سـمح له بتجميـع جنود من ولايات الأناضول كيفما شـاء. ويُظهِر هذا السـلوك أن السـلطان سـليم الأول تعرّف جيدًا على بَرْبَرُوسْ، وسـعد كثيرًا بانتصاراتـه، لذلـك أولاه اهتمامًا خاصًا. هذا إلى جانـب أنه أثبت بُعدَ نظره مرة أخرى في هذا الصدد.

إن دخول بَرْبَرُوسْ في خدمة العثمانيين أزعج حكام تلمسان وتونس، حتى إنهم بدؤوا في تحريض شعب الجزائر على القيام بثورة. ونما إلى سمع بَرْبَرُوسْ ما يُحاك ضده خفيةً، فهرع إلى القبض على قادة الثورة المضادة وتخلص منهم. ولما لم يحصل مناهضو بَرْبَرُوسْ على نتيجة من هذه الثورات، شرع الإسبان في الهجوم هذه المرة، إلا أن بَرْبَرُوسْ نجح في كبح جماح هجومهم. ثم واصل حكام تلمسان وتونس الذين اتحدوا ضده، تحريض الشعب الجزائري للثورة ضد بَرْبَرُوسْ، فتمخّض عن ذلك نشوب معركة بين قوات بَرْبَرُوسْ وحكام تونس، وخلال هذه المعارك انتقل شخصان يدعيان محمد بَكْ و"ابن القاضي" - وهما من الجزائريين التابعين لقوات بَرْبَرُوسْ- إلى صفوف العدو. وكان هناك في تلك الأثناء شقيق لحاكم تلمسان يُدعى "مسعود"، لم يتفق مع أخيه، فعاونه بَرْبَرُوسْ على بسط سيطرته على تلمسان. إلا أن هذا الرجل انقلب على بَرْبَرُوسْ وأدار له ظهره، بعد أن لجأ إليه في بادئ الأمر وأحسن إليه بَرْبَرُوسْ وسانده في تولّي السلطة في تلمسان. فسارع بَرْبَرُوسْ-في مقابل ذلك-إلى تعيين شقيق لـ"مسعود" يُدعى "عبد الله" أميرًا على تلمسان، إضافةً إلى ذلك أيده بقوة من الجنود الأتراك قوامها ٢٥٠ جنديًا لحمايته وحماية مدينته ضد قوات العدو. وبهذه الطريقة، فقد أخضع بَرْبَرُوسْ مدينة تلمسان لسيطرته المطلقة.

ولكن على الرغم من ذلك كله، كانت هناك بعض القبائل التي لا ترغب في تشكيل بَرْبَرُوسْ إدارةفي الجزائر وتونس وتلمسان، فلم تتورّع قيد أنملة عن مضايقته ومشاكسته بتشجيع من الإسبان. كما أن "ابن القاضي" هاجم بَرْبَرُوسْ بتحريض من حاكم تونس، لكن هجومه باء بالفشل. وقوبل بعدها بَرْبَرُوسْ بثورة من الشعب الجزائري، إلا أن الثوار تعرضوا لهزيمة نكراء بعد اعتدائهم على القصر، وأُعدم زعماؤهم شنقًا. لكن هذه التطورات لم تسهم بشكل أو بآخر في استقرار الجزائر. فبدأت الخلافات تدبّ في الجزائر، وظهرت بوادر فتنة جديدة بين السكان العرب المحليين والأتراك، كما فقدت الجزائر بعضًا من القلاع التابعة لها، وبالتالي انخفضت الإيرادات الواردة لخزينة الدولة. كل ذلك دفع بَرْبَرُوسْ لاتخاذ قرار بمغادرة الجزائر، فانسحب إلى مدينة "جيجل

(*Çiçel*)" الواقعة على بعد ٦٠ ميلًا شرق مدينة "بجاية (*Becaye*)" الجزائرية، وعاود ممارسة مهنة القرصنة البحرية هناك (١٥٢٤م).

نجاحات بَرْبَرُوسْ وإنقاذه للمسلمين من الظلم والطغيان

لقد مرّت هذه الفترة من حياة بَرْبَرُوسْ أثناء مزاولته مهنة القرصنة البحرية بالعديد من النجاحات الجديرة بالملاحظة، إذ استطاع تحقيق العديد من الإنجازات المذهلة خلال تلك الفترة وهو لا يمتلك سوى قلّة من القوات المحدودة. فعلى سبيل المثال، أغارت ٧ سفن تحت قيادته على أسطول مسيحي مكون من ٩ سفن، ونجح في إغراق سفينة من أسطول العدو، وأسْر الثماني الباقية. كما أنه نجح في مهاجمة أسطول كبير من السفن المسيحية بدعم من ٩ سفن فقط، وأحرق العديد منها. ولقد تكلّلت نجاحاته تلك بانضمام ١٠ قراصنة أتراك -من بينهم "آيدن (*Aydın*) رئيس" و"شعبان رئيس"- يرافقهم أسطول ضخم مكون من ٤٠ سفينة، إلى قواته. وبذلك فقد ازدادت قوة بَرْبَرُوسْ وذاع صيته خلال فترة وجيزة، أعقب ذلك خروجه في حملة عسكرية صوب الجزائر التي كان يحكمها في السابق. والسبب في ذلك أن حاكم الجزائر "ابن القاضي" عارض دخول المسلمين القادمين من إسبانيا إلى سواحل إفريقيا، فتقدم هؤلاء المسلمون بشكوى إلى بَرْبَرُوسْ يستنجدون به. فانطلق بَرْبَرُوسْ إلى الجزائر، وتغلّب على "ابن القاضي" الذي كان يدافع عن قلعته بقوة عسكرية قُدِّرت بعشرين ألف جندي، واستعاد حكم الجزائر، وبهذا النصر يكون قد عمد إلى الوقوف إلى جانب المسلمين هناك والعمل على حل مشاكلهم. وبذلك فقد قضى على كافة معارضيه في الجزائر بمن فيهم حاكمها السابق "ابن القاضي".

إن عودة بَرْبَرُوسْ مجددًا إلى الجزائر وإقامته بها حدث بعد فترة من البُعد دامت ثلاث سنوات. وعندما أحكم سيطرته مرة أخرى على الجزائر، أرسل رسولًا إلى حاكم تلمسان "عبد الله" كأول إجراء يقوم به، وطالبه بسداد الضرائب التي يدفعها سنويًا. لكن "عبد الله" أبى سداد الضرائب، فتقاتل الطرفان، وغُلب حاكم تلمسان، واضطر مجبرًا لدفع الضرائب. ثم بعد ذلك نجح بَرْبَرُوسْ

في بسط نفوذه على جزيرة "بينون" أو "أدا قلعة (*Adakale*)" المقابلة للسواحل الجزائرية. وهذه الجزيرة كان يحكمها الإسبان، وكان بها قلعة محكمة التحصين. وفي الحقيقة، فإن الإسبان فكّروا في السيطرة على الجزائر عبر اتخاذ هذه الجزيرة مقرًا لهم. كما أن الإسبان عمدوا إلى قصف الجزائر بالقذائف المدفعية أثناء الأذان محاولين كتم صوت الأذان بأصوات قذائفهم، وهدّموا منارات المساجد بقذائف مدافعهم. فشرع بَرْبَرُوسْ في اتخاذ بعض التدابير الوقائية ضد هذه الهجمات، كأول عمل قام به بعد السيطرة على الجزائر، حتي أُجبر الإسبان على التراجع عن تنفيذ هذه الهجمات العدائية. والآن، فإن بَرْبَرُوسْ يرى أنه من الضروري الاستيلاء على هذه الجزيرة التي تحمل أهمية كبيرة بالنسبة للجزائر لقربها منها. وسعيًا لتنفيذ هذا الغرض، طالب الإسبان بتسليم الجزيرة في البداية، لكنهم لم يستجيبوا له. فحاصرها وقصفها بالمدافع على مدار أسبوع كامل.

وفي النهاية، خضعت الجزيرة لسيطرته عام ١٥٣٠م. أمر بعدها بَرْبَرُوسْ بهدم حصون جزيرة "بينون"، واستخدام حجارتها في صناعة طريق يربط بينها وبين أراضي الجزائر عبر البحر. وبهذه الطريقة، أدّى اتحاد جزيرة "بينون" بأراضي الجزائر إلى تأسيس ميناء جديد للجوء السفن إليه عند الحاجة. وفي هذه الأثناء، قدِم أسطول إسباني لنجدة الجزيرة، إلا أنه عاد أدراجه عندما رأى أن قلعة الجزيرة قد سُوِّيت بالأرض. لكن سفن بَرْبَرُوسْ الحربية تعقّبت السفن الإسبانية، واستطاعت أسْر ٩ منها تحمل اسم "بَارْجَا (*barça*)" التي تعتبر أكبر من سفن بَرْبَرُوسْ حجمًا. وقد أخبر أحد القادة الأسرى من الأسطول الإسباني بَرْبَرُوسْ بأن ملك إسبانيا "كَارْل الخامس" ذهب في رحلة إلى إيطاليا، فأمر بَرْبَرُوسْ بتحرك أسطوله بقيادة "آيدن رئيس" نحو سواحل أوروبا. فقصف "آيدن رئيس" سواحل مدينتي "مرسيليا (*Marsilya*)" و"نيس (*Nice*)" الفرنسيتين، وأسَرَ أسطولًا إسبانيًا مكونًا من ١٥ سفينة كانت مكلّفة بحماية سواحل إسبانيا،

وذلك عبر السيطرة على سفينة الأميرال[٥٨]. ثم عاد "آيدن رئيس" إلى الجزائر يحمل الغنائم والسفن التي أسرها في رحلته إلى أوروبا.

كانت هذه الأعمال التي يقوم بها بَرْبَرُوسْ في عرض البحر الأبيض المتوسط، وكذلك النجاحات التي حققها في هذا الإطار، قد أزعجت الإمبراطور "كَارْل الخامس" الذي كان يمتلك أراضي مترامية الأطراف، وكان يسعى جاهدًا لكي يصير أكبر زعيم في القارة الأوروبية. وقد عقد الإمبراطور الإسباني مجلسًا للتشاور حول قضية بَرْبَرُوسْ، والعمل على إيجاد حل للتحرك بأريحية أكبر في مياه البحر المتوسط. واتخذ المجلس قرارًا بتعيين الإيطالي "أندريا دوريا"؛ أحد أكبر وأشهر أمراء البحار في زمانه، في مهمة وقف ممارسات بَرْبَرُوسْ في البحر المتوسط، والتخلص منه بأي طريقة. وكان "دوريا" ينتسب إلى أسرة عريقة بمدينة "جنوة" الإيطالية، وقد التحق بالعمل في البحر منذ أن كان شابًا يافعًا في التاسعة عشرة من عمره، إذ لم يمكث في مكان واحد لمدة طويلة، بل خدم العديد من الحكام والأمراء في مختلف البلدان. وكان من بين البلدان التي خدم بها الفاتيكان، ونابولي، وفرنسا وغيرها من الدول. وقد دخل مؤخرًا في خدمة الإمبراطور "كَارْل الخامس"، وكان عمره عندما كُلِف بردع بَرْبَرُوسْ ستين عامًا. وتيقّن "دوريا" من أن القوات التي يقودها ليست كافية للدخول في نزال ضد بَرْبَرُوسْ، فحصل على دعم من الفرنسيين قوامه ٢٠ سفينة إضافية، وانطلق إلى مياه البحر المتوسط وتحت إمرته أسطول مكون من ٦٠ سفينة. وبمجرد أن علم بَرْبَرُوسْ بتحرك أسطول العدو، انطلق على رأس أسطول مؤلف من ٤٢ سفينة، كان يمتلك ٣٥ منها، وحصل على السبع الباقية من رفيقه "سنان رئيس". إلا أن الطرفين لم يعثرا على بعضهما البعض في عرض البحر، فوصل "دوريا" إلى مدينة "شرشال" وأنزل جنوده إلى الساحل، وتطلع إلى الاستيلاء على المدينة. لكن المدافعين عن المدينة، خرجوا من قلعتها، وقاتلوا قوات "دوريا"، وقتلوا منهم ١٤٠٠ جندي، وأسروا ٦٠٠ آخرين.

---

(٥٨) أي: قائد الأسطول. (المترجم)

واضطر البحار الإيطالي للانسحاب، وانطلق على رأس أسطوله عائدًا إلى إسبانيا. وأما بَرْبَرُوسْ فتقدّم حتى وصل بالقرب من سواحل جزيرة "مايورقة (*Mayorka*)" الإسبانية، لكنه انحرف بأسطوله تجاه السواحل الفرنسية لعدم مقابلته للأسطول الإسباني في مياه البحر، وغنم الغنائم من مدينتي "مرسيليا" و"تولون (*Tulon*)" الفرنسيتين. وبينما كان عائدًا من فرنسا، نما إلى سمعه ما حدث لأسطول "دوريا". وفي تلك الأثناء، صادف بَرْبَرُوسْ سفينتيْن محمّلتيْن بقوة عسكرية قوامها ثلاثة آلاف جندي كان قد طلبها "دوريا" من إيطاليا إبان وصوله إلى سواحل إسبانيا. فأرسل إليهم "سنان رئيس" الذي استطاع الاستيلاء على هاتين السفينتين. وفور أن علم "دوريا" بما حدث لقوات الدعم التي طلبها من إيطاليا، خرج من مضيق "جبل طارق"، ولجأ إلى ميناء مدينة "إشبيلية". وأما بَرْبَرُوسْ لم يُلق بالًا لتعقّب "دوريا"، وآثر العودة إلى الجزائر.

كان السلطان سليمان يتابع باهتمام بالغ جميع الأعمال التي يقوم بها بَرْبَرُوسْ منذ أول وهلة لصعوده إلى عرش السلطنة. وكان بَرْبَرُوسْ يرسل إلى السلطان الأنباء التي تتحدث عن الأعمال التي يقوم بها والانتصارات التي كان يحرزها، وكان يبعث إليه كذلك بالغنائم والهدايا الثمينة. علاوةً على أن السلطان سليمان كان يحصل على الأخبار ذات الصلة بالأوضاع السائدة في منطقة غرب البحر الأبيض المتوسط بشكل متواصل من بَرْبَرُوسْ. حتى إنه بعث إليه برقيب يُدعى مصطفى، وطلب منه أن يبلغه بماهية اتفاقية السلام الموقعة مع فرنسا، وموقف هذه الدولة في تلك الفترة. وكما ذكرنا آنفًا، فقد أرسل الإمبراطور "كَارْل الخامس" البحّار "دوريا" إلى "مورا (*Mora*)" عام ١٥٣٢م بينما كان في طريقه صوب ألمانيا. وفيما كان "دوريا" يحاصر قلعة "قولون" في "مورا"، كان بَرْبَرُوسْ يقاتل أمير تلمسان "عبد الله". فهاجم بَرْبَرُوسْ أمير تلمسان من البر والبحر، وهزمه هزيمة نكراء. وتمكن "عبد الله" من عقد اتفاقية صلح مع بَرْبَرُوسْ في مقابل سداد ٣٠ ألف قطعة ذهبية. أعقب ذلك تحرك بَرْبَرُوسْ لنقل مسلمي الأندلس -أي إسبانيا- إلى سواحل إفريقيا، كنتيجة لمحاولة "دوريا" السيطرة على قلعة "قولون". هذا إضافةً إلى قيام بَرْبَرُوسْ بنقل

٧٠ ألف شخص من مسلمي الأندلس إلى إفريقيا على ٧ رحلات، وتسكينهم بالقرب من الجزائر، بعد أن أعربوا له عن عدم تحملهم لتسلط النصارى في إسبانيا وطلبهم العون منه في هذا الصدد. كما هزم أسطول بَرْبَرُوسْ أسطولًا من أساطيل العدو مكونا من ١٥ سفينة قابله أمام جزيرة "سريفوس" اليونانية، واستولى عليها جميعًا إلا واحدة. وقد أقدم بَرْبَرُوسْ على إنجاز عملية إنقاذ مسلمي الأندلس تلك بأسطول مكون من ٣٦ سفينة.

وعلى الرغم من النجاحات التي حققتها القوات البرية العثمانية في الأسفار التي قامت بها، وامتلاكها الترسانات القادرة على بناء السفن بطريقة متميزة، وقدرة عسكرية من الجنود المهرة؛ فإن هذه النجاحات لم تُرَ في الأنشطة البحرية. وكان السبب الرئيسي في هذا الوضع هو عدم وجود شخص قادر على توجيه البحرية التركية إلى الاتجاه الصحيح. وكان السلطان سليمان على وعي تام بأنه لا يمكن أن تكون للدولة العثمانية هيبة يخشاها أعداؤها من دون الاقتداء بالنجاحات التي تحققها القوات البرية كذلك في البحر، لذلك فقد أولى اهتمامًا كبيرًا بترسيخ دعائم السيطرة العثمانية في البحر المتوسط. وعليه، فقد وجد السلطان ما كان يبحث عنه في بَرْبَرُوسْ الذي كان قد ذاع صيته في البحار في تلك الأثناء. وكان أكثر شيء قد لفت انتباه السلطان سليمان في بَرْبَرُوسْ هو دخوله في تحدٍ وصراع مع أسطول إمبراطور إسبانيا، وكان لدى السلطان إيمان راسخ بأنه هو الشخص الوحيد الذي سيتمكن من الوقوف في وجه البحار الإيطالي "دوريا". وكان "دوريا" قد نجح في السيطرة على "كورون"، لكنه لم يتمكّن من الإمساك بزمامها لفترة طويلة. وقد أدّت هذه الأنشطة المعادية للدولة العثمانية التي يقوم بها "دوريا" إلى إرسال السلطان سليمان فرمانًا خاصًا إلى بَرْبَرُوسْ. وبحسب ما أورده مؤرخ القرن السابع عشر "كاتب شلبي (*Katip Çelebi*)"، فقد جاء بذلك الفرمان السلطاني ما يلي:

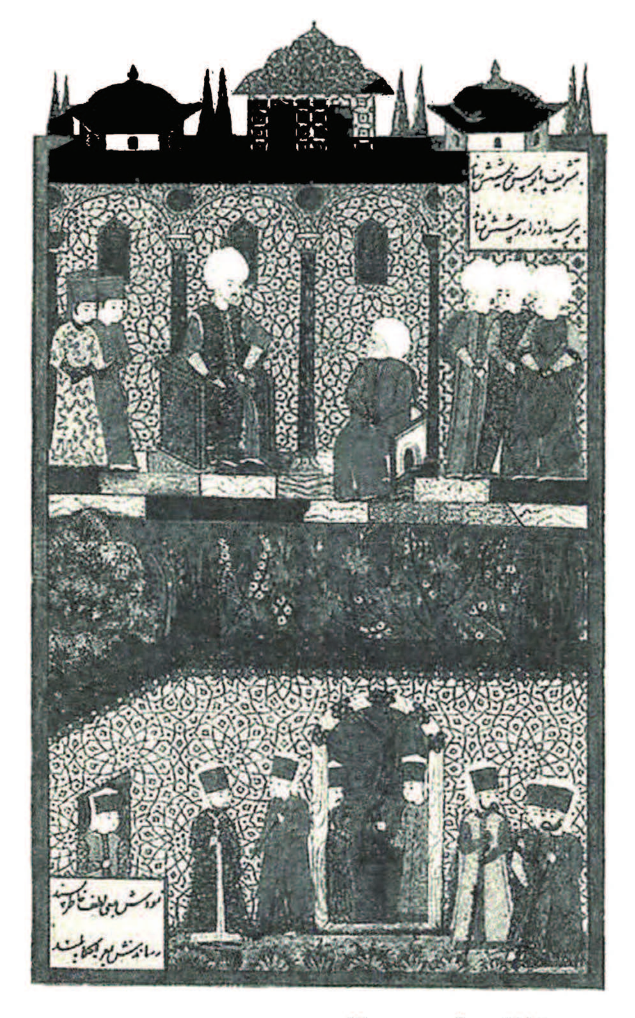
"... أتطلع إلى السفر إلى إسبانيا. فاختر لك رجلًا ثقة يحل مكانك في البحر، وتعال لنتناقش في هذا الأمر. وإن لم يكن هناك من هو جدير بالحلول مكانك، فأعلمني حتى نتخذ ما يلزم في هذا الشأن..."

شرع بَرْبَرُوسْ في الإعداد للسفر بعد أن تسلّم خطاب السلطان من الرقيب "سنان". وكان قد انشغل في هذا التوقيت بأمر ٧ آلاف أسير نصراني في الجزائر أعدّوا مخططًا للهرب. وترك بَرْبَرُوسْ ابنه بالتبنّي "خادم حسن أغا" كوكيل يحل مكانه في الجزائر، وعيَّن "رمضان شلبي" مستشارًا له، وأبحر نحو إسطنبول في شهر آب/أغسطس عام ١٥٣٢م يرافقه ١٨ شخصًا من أشهر القباطنة الأتراك. لكنه لم يتعقب سواحل إفريقيا ناحية الشرق، بل توجه إلى جزيرة "سَرْدُونْيا (*Sardunya*)"، ثم أبحر بعدها صوب جزيرة "صقلية". واستولى في تلك الأثناء على أسطول نصراني مكون من ١٨ سفينة عند مضيق "مسينا (*Messina*)". وبعد أن سيطر على طاقم السفن وحمولتها، أضرم النار بها على مرأى ومسمع من أهالي "مسينا". هرع بعدها بَرْبَرُوسْ متوجهًا صوب مدينة "بريفيزا (*Preveze*)" اليونانية بعدما أعلمه الأسرى الذي سقطوا في أيديه أن "دوريا" أبحر إلى "قورون" على رأس أسطول من قواته. وأما "دوريا"، الذي علم بتواجد بَرْبَرُوسْ في مياه "مورا"، فرّ هاربًا إلى إيطاليا قبل وصول بَرْبَرُوسْ إلى "بريفيزا" بفترة وجيزة. فأرسل بَرْبَرُوسْ خلفه قوة بحرية قوامها ٢٥ سفينة، حتى إن هذه القوة نجحت في اللحاق بسبعة من سفن "دوريا" التي كانت تسير خلف أسطوله، وخطفوا خمسًا منها، وأسروا اثنتين أخريين وعادوا بهما. وانتقل بعدها بَرْبَرُوسْ من "بريفيزا" إلى مدينة "نافارين" والتقى بها قائد الأسطول البحري العثماني "كَمَانْكَشْ أحمد بَكْ"، وانطلقا من هناك نحو إسطنبول في كانون الأول/ديسمبر عام ١٥٣٣م.

لوحة لـ"بَرْبَرُوسْ خير الدين باشا"
رسمها رسام أجنبي

استُقبل بَرْبَـرُوسْ فـي إسـطنبول اسـتقبالًا حافـلًا، ونـزل ضيفًـا فـي قصر "كمانكـش أحمـد بَكْ" الواقـع بميـدان "آتْ مَيْدَانِي"؛ -ميدان "السـلطان أحمد" حاليًـا-. واسـتقبله السـلطان سـليمان برفقـة ١٨ مـن أصدقائـه بحضور حشـدٍ مـن الوزراء والعلماء. فأقبل بَرْبَرُوسْ على تقبيل يد السـلطان، وكرّمه السـلطان وألبسـه قفطانًا ثمينًا. وبحسـب ما ترويه بعض المصادر التاريخية، فإن بَرْبَرُوسْ قبّـل يد السـلطان وجلس أمامه عندما مثل لديه في القصر، ذلـك لأنه لم يكن على علم صحيح بعادة تقبيلِ ذيل ملابس السلطان.

ولقد أُعجب السـلطان سـليمان كثيـرًا بتصرفـه الطائش هـذا، وأطلق عليه لقب "خير الدين" إلا أن تفاصيل هـذه الواقعـة يجـب أن يُنظـر إليهـا بشـك بالـغ، إذ إن أحـد الجوامـع التـي أمر بَرْبَـرُوسْ ببنائها في الجزائر فـي العقـد الثاني من القـرن الخامس عشـر كانـت قـد كُتـب عليهـا اسـم "خير الديـن". ولهذا السـبب، يتضح لنا أن اسـم خير الدين هو من أسمائه الأصلية، وأن واقعة تسميته بهذا اللقب مـن قبـل السـلطان سـليمان القانوني ليست إلا أكذوبة.



بَرْبَرُوسْ خير الدين باشا في حضرة السلطان سليمان

لقـد جلـب بَرْبَـرُوسْ العديد من الهدايا الفاخرة وهو قادم إلى إسطنبول، كمـا كان يرافقه بعض الشـخصيات الهامة في تلك الرحلـة، بحيث كان من بين أبرز الشخصيات التي رافقته في هذه الرحلة "رشيد" شقيق حاكم تونس "مَوْلَايْ (*Mevlay*) حسـن". وكان "رشـيد" -المنحدر من سـلالة "بني حفص"- قد لجأ

إلى بَرْبَرُوسْ هربًا من أخيه "مَوْلَايْ حسن" الذي كان يتسم بالشدة وبقتله لإخوته. وعلى الرغم من ذلك، لم يتركه "مَوْلَايْ حسن" في حاله، حتى إنه طلب المساعدة من السلطان سليمان للقبض على أخيه. إلا أن السلطان أمر بَرْبَرُوسْ باصطحاب "رشيد" في رحلته إلى إسطنبول.

وقد تناول السلطان سليمان خلال اللقاء بعضًا من الأخبار ذات الصلة بغزوات بَرْبَرُوسْ، كما أطلعه على مستجدات الأوضاع في البحر المتوسط. ثم أرسل السلطان "خير الدين بَاشَا" إلى مدينة حلب إلى جانب إبراهيم بَاشَا الذي كان يعد العدة هناك في ذلك التوقيت، وذلك من أجل تعيينه في منصب أمير أمراء البحر الأبيض الذي كان سيُشَكل حديثًا في الجزائر. ويروي المؤرخ "جلال زاده" أن بَرْبَرُوسْ ذهب إلى حلب لرؤية الصدر الأعظم إبراهيم بَاشَا، وبالطبع فإن ذلك حدث برغبة من السلطان. ذلك لأنه كان يجب عليه بنفسه -أي إبراهيم بَاشَا- توجيه الأوامر إلى بَرْبَرُوسْ، لتمتعه بلقب "سَرْ عَسْكَرْ (*Serasker*)"[٥٩]، أي الوزير المكلف بالنظر في شؤون الجيش وقيادته، ولامتلاكه أيضًا امتيازات مهمة في هذا الشأن. واستقبل الصدر الأعظم بَرْبَرُوسْ خَيْرَ الدين في حلب بعد أن وصلها برًا خلال ٢٢ يومًا. وخلال الاستقبال الأول، خُصص مكانٌ له أسفل مقاعد البَاشَاوات والأمراء، لكن في الاستقبال الثاني أُجلس في مكان أعلى من أماكن سائر الأمراء الآخرين، لأن السلطان ألبسه قفطانًا بصفته أميرًا للجزائر. وبعبارة أخرى ذكرها المؤرخ "جلال زاده" عن بَرْبَرُوسْ قال فيها:

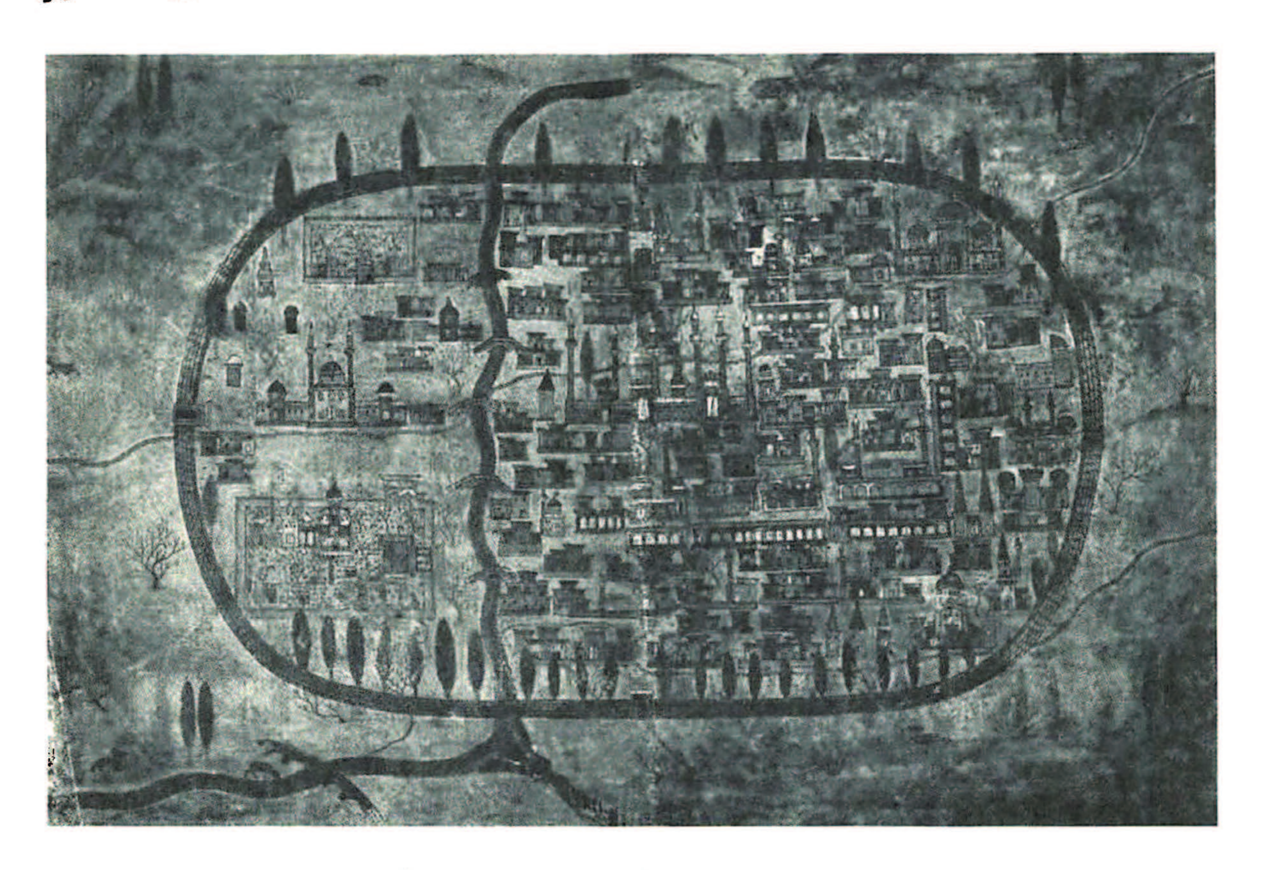
"... هو أمير سنجاق غَالِيبُولِي، وقبطان سفن البحار، وأمير أمراء الجزائر والمغرب".

---

(٥٩) سَرْ عَسْكَر: هو لقب كان يستخدم في الدولة العثمانية للوزير المكلف في نظر شؤون الجيش وقيادته، وكلمة "سر عكسر" مؤلفة من كلمة "سر" والتي تعني "رئيس"، وكلمة "عسكر" والتي تعني "جند" والكلمة ككل تعني باللغة التركية "رئيس الجند". (المترجم)

سفر السلطان سليمان إلى العراقَيْن: دخول تبريز وبغداد

أعدّ السلطان سليمان نفسه للسفر، وانتقل إلى الطرف الآسيوي من إسطنبول في ٢٩ ذي القعدة ٩٤٠هـ (١١ حزيران/يونيو ١٥٣٤م). وبينما كان إبراهيم بَاشَا يتحرك من حلب صوب "ديار بكر"، بعث رسالة إلى السلطان يقترح فيها توجه السلطان إلى أراضي الأناضول (١٤ أيار/مايو ١٥٣٤م). أعقب ذلك حدوث انقسام داخل الجيش بسبب اختلاف وجهتي نظر إبراهيم بَاشَا و"إِسْكَنْدَرْ شلبي" حول قضية وجهة السفر، وبدأت الإشاعات في الانتشار شيئًا فشيئًا، وبدأ الجميع في ترديد عبارة "يلزم للملكِ ملكٌ". وقد ترك السلطان سليمان الحفاظ على الأناضول لأمير صَارُوخَانْ الأمير مصطفى، كما أمن على إسطنبول لشخص ذي ثقة لديه، وتوجّه إلى "أُوسْكُودَارْ" يرافقه قسم من جنود منطقة "روملي". وقد تحرك السلطان بسرعة إثر تلقيه خطاب إبراهيم بَاشَا، ولعلمه بحالة الجيش حينها، ووصل إلى مدينة "قونيا" عبر طريق "بُورْصَا (*Bursa*)-يَنِي شَهِيرْ (*Yenişehir*)-كُوتَاهْيَا". وبينما كان في "آقحصار" نما إلى مسامعه نبأ فتح قلاع مدينة "وَانْ" وما حولها، ثم وصلت إليه مفاتيح هذه القلاع وهو في "قونيا". وعندما نزل للاستراحة في مدينة "سِيوَاسْ"، جاء إليه سفير الأوزبك. وحينما وصل إلى مدينة "أرزينجان (*Erzincan*)" بتاريخ ٢٠ آب/أغسطس، وفد إليه سفير "شيروان شاه (*Şirvanşah*)". وعندما قدم إلى مدينة "أَرْضُرُومْ (*Erzurum*)" في الشرق، وجدها في حالة يرثى لها، فأمر بإعادة ترميمها. وفي تلك الأثناء، أبلغ إبراهيم بَاشَا السلطانَ بنبأ السيطرة على أذربيجان، قبل أن يصل إلى "أَرْضُرُومْ" بفترة وجيزة. وكما جاء بخطابه إلى السلطان -بحسب ما ذكرنا أعلاه- فقد أخبره بأنه نصّب أمراء على كافة مناطق أذربيجان، وأطلعه على هويات هؤلاء الأمراء الجدد.



منمنمة تبريز لـ"مطرقجي نصوح"

وأوصى إبراهيم بَاشَا السلطان بقضاء فصل الشتاء في "ديار بكر". فأُعجب السلطان بالفكرة، وانطلق من أَرْضُرُومْ في رحلة شاقة وصل في نهايتها إلى "أرجيش" في ١٦ أيلول/سبتمبر. وبينما كان السلطان هناك، جاءه رسول إبراهيم بَاشَا، حيث أخبره بأن الشاه في طريق عودته، وعليه؛ فيجب على السلطان الإسراع في التوجه إلى تبريز. فتحرك السلطان من أرجيش بسرعة نحو تبريز يوم ٢١ أيلول/سبتمبر، ووصل إلى تبريز عبر طريق "بَنْدَرْ مَاهِي (Bendermahî)" بتاريخ ١٩ ربيع الأول (٢٨ أيلول/سبتمبر ١٥٣٤م)، واستقبله شعب تبريز بحفاوة بالغة. وعقب ذلك بيومين اثنين، تقابل جيشا السلطان والصدر الأعظم عند منطقة تسمى "أوجان (Ucan)". وبعد مؤتمر ديواني عقده السلطان، عيّن نجل شيروان شاه "محمد مِيرْزَا (Mirza)" في منصب "سر عسكر" على "تَبْرِيزْ (Tebriz)"، وترك بجواره كلًّا من أمير "بَيْبُورْدْ (Bayburd)" إدريس بَكْ، وأمير "كَمَاهْ (Kemah)" سنان بَكْ، وأمير "قارا حصار (Karahisar) شرقي" "بِيقْلِي (Bıyıklı) محمد بَاشَا أوغلو مصطفى بَكْ"، وأمير "آيدن""إِخْتِيَارْ (İhtiyar) بَكْ" لمساندته في حماية المدينة. ثم انطلق نحو مدينة "سلطانية"

عبر طريق "زَنْجَان (Zengân)" شمال غرب إيران. وفي تلك الأثناء، وفد "طهماسب الأول" - المتواجد بالقرب من مدينة "رَيْ (Rey)" (طهران) إلى "قَزْوِينْ"، وأرسل أخويه "بَهْرَامْ مِيرْزَا" و"أَلْقَاسْ (Elkas) مِيرْزَا" على رأس قوات من "تُرْكُمَانْ الشَامْلُو (Şamlu Türkmen)"؛ إحدى القبائل التركمانية، إلى "تَبْرِيزْ". فالتقت القوات العثمانية والصفوية أمام مدينة "قَارَا آغَاجْ (Karaağaç)". وعلى الرغم من انضمام "أفلند خان الأفشاري (Afşarlu Elvend Han)" إلى القوات الصفوية، فإنهم انسحبوا مسرعين إلى موقع "أبهر (Ebher)" الذي يتواجد فيه الشاه لخوفهم من مدافع الجيش العثماني، وتلقّيهم نبأ تقدُّم السلطان العثماني صوب مدينة سلطانية.

وأثناء تقدم القوات العثمانية، عيّن السلطانُ إبراهيم بَاشَا وجنود روملي في طليعة الجيش، وأمير "قارامان" وجنوده في مؤخرة الجيش. ووصل الجيش العثماني إلى "نيكباي (Nikbey) خان" عبورًا بنهر "زنجان (Zencân)"، ثم توجّه من هناك إلى مدينة زنجان، ومن هناك إلى سلطانية. وبينما الجيش العثماني في سلطانية، علم السلطان أن الشاه انسحب إلى الأطراف الداخلية لدولته، إذ كان "طهماسب" يخشى مجابهة العثمانيين في ساحة القتال وجهًا لوجه لعلمه مسبقًا بأن منازلة الجيش العثماني ستجلب عليه ويلات كثيرة وستكبّده خسائر بالجملة، وكان دائمًا ينسحب من أمامهم. وعمد إلى تخريب كافة المناطق التي انسحب منها قبل أن يمرّ منها العثمانيون. وعبر الجيش العثماني "قِيزِيلْ أُوزَنْ (Kızıl Özen)" ووصل إلى عراق العجم، ثم استطاع الوصول إلى سلطانية وسط ظروف محيطة في غاية الصعوبة بعد أن تقدم وسط أراضٍ صحراء، جرداء، خراب، مقفرة، هُجِّر أهلها من قِبل قوات القزلباش.

وكما ورد في بعض كتب التاريخ أن بعض الأمراء جاءوا إلى السلطان سليمان لدى دخوله سلطانية، وقدّموا فروض الطاعة والولاء. وهنا دخل كلٌّ من "محمد بن ذُو الْقَادِر" أحد أمراء "طهماسب" - وهو ابن "شَاهْرُوخْ (Şahruh)" وقد فرّ قبل ذلك هاربًا إلى إيران أثناء اندلاع ثورات العلويين، وعينه الشاه واليًا

علـى إقليمي "طارم (*Tarım*) وخلخال (*Halhal*)" - و"قايا خان (*Kaya Han*)"، و"بورون (*Burun*)" سـلطان أوغلو حسـين سـلطان "التَكَه لُو (*Tekelü*)"، دخلوا فـي خدمـة العثمانييـن يرافقهم ثلاثة آلاف جندي. إلا أن فـي تلك الأثناء بدأت برودة الجو تظهر تدريجيًا، وهطلت كميات كبيرة من الثلوج. واسـتطاع الجيش العثمانـي التقـدم من سـلطانية نحو أبهر وسـط ظـروف مناخية غاية في السـوء مـن ناحيـة، ومن ناحية أخـرى وعورة الطريق، ونفاد المـؤن والذخيرة، وبالتالي مـوت حيواناتهم بسـبب ذلك وغيرها من الأوضاع غيـر المواتية. وكان الجيش العثمانـي يسـير في طريقه ويعبر المسـارات الوعرة والمضايـق الضيقة، واضطر لتدميـر ١٠٠ مـن مدافعه ودفنها جرّاء عدم قدرته على حملها في رحلته الشـاقة تلـك. وكنتيجـة طبيعية لعدم ظهور الشـاه وقواته، وكافة هـذه الظروف المناخية والحياتية الصعبة، أُجبر السـلطان سـليمان على اتخاذ قرار بتغيير مسـار الرحلة صوب بغداد. وكانت مسـيرة الجيش العثماني في هذه الرحلة في غايةالوعورة: فـكان مواصلته لطريق وعرة وسـط صحراء جرداء وأراضٍ مدمرة بمشـقة كبيرة وصبر عظيم، من الأحداث نادر الحدوث في تاريخ البشرية جمعاء. فقد استطاع الجيـش العثمانـي الوصول من إسـطنبول إلى بغداد خلال فتـرة زمنية تجاوزت الستة أشهر عابرًا بـ١٢٣ منزلًا.

توجـه الجيش العثماني من سـلطانية نحو "هَمَـدَانْ (*Hemedan*)". وحينها، أُرسل "عُلَمَا بَاشَا" إلى تبريز يرافقه "ذُو الْقَادِرلي محمد بَكْ". كما سُـمح لحاكم "جِيلَانْ" مظفر خَانْ بالعودة إلى وطنه. وأما الصدر الأعظم فقد شـرع في توجيه السـلطان لانتقاد "إِسْكَنْدَرْ شـلبي" لاختياره الطريق الخاطئ في رحلة الجيش. وعليـه، فقـد نجح في جعل السـلطان يعزله من منصبـه. ووصل الجيش بتاريخ ١٥ تشـرين الأول/أكتوبر إلى منطقة تسمى "قصر شيرين (*Kasrışirin*)"، ثم إلى مـكان يُطلـق عليه "خانقيـن (*Hanikin*)". وفي هذه الأثناء، وصل إلى السـلطان خطـابٌ مـن أمير أمراء بغـداد محمد خان "التكّه لو" يعرض فيه طاعة السـلطان والإذعـان لأوامـره، وذلـك تنفيذًا لأمر صادر من الشـاه شـخصيًا. لكن "محمد خـان" لم يكن حسـن النية في هذا الطلب، وكان يرغـب في مراوغة العثمانيين.

إلا أنه في نهاية المطاف غادر المدينة دون مقاومة، وهرب إلى شيراز عبر مدينتي البصرة و"دِيزْفُولْ (*Dizful*)"، وذلك بعد أن أبدى أهالي بغداد رغبتهم في إرسال مفاتيح المدينة إلى السلطان سليمان، وتنفيذًا لأمرٍ جاءه من الشاه.

وقد خرج إبراهيم بَاشَا في مقدمة الجيش نحو بغداد بعد أن ظلت دون أحد يدافع عنها. وهرع سكان بغداد إلى فتح أبواب المدينة أمام الصدر الأعظم يوم ٢١ جمادى الأولى ٩٤١هـ (٢٨ تشرين الأول/أكتوبر ١٥٣٤م)، ورُفع العلم العثماني على جميع أبراج المدينة. وبعدها بيومين، دخل السلطان سليمان المدينة، وتوجّه مباشرةً نحو مكان يُسمى "عزيمية (*Azimiyye*)" الذي يوجد به قبر الإمام الأعظم "أبي حنيفة النعمان". وهنا، قدّم مسؤول حمْل الراية الخاص بالصدر الأعظم، مفاتيحَ بغداد إلى السلطان سليمان.

كان السلطان سليمان يرنو إلى قضاء فصل الشتاء في بغداد بعد رحلة طويلة وشاقة، ولذلك فكّر في الاستراحة في بغداد والتخطيط للحملة العسكرية الجديدة التي يهدف للخروج إليها بحلول فصل الربيع. ومكث الجيش العثماني في بغداد لأربعة أشهر. وأمر السلطان جنوده خلال هذه المدة باتخاذ التدابير اللازمة لعدم المشقة على أهالي المدينة، كما عفى عن قبيلة "التكه لي" بعد أن أطاعوا أوامره، وأحسن إلى ثلاثة من كبار هذه القبيلة بمنحهم بعض الألوية لإدارتها. هذا إضافةً إلى ذلك كلف بعض الأشخاص بالعثور على قبر الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان، وأمر بتنظيفه من الأوساخ والأتربة، وبناء ضريح ومسجد فوقه. ثم بعد ذلك أمر بإنشاء ضريح وتكية على قبر الشيخ عبد القادر الجيلاني مؤسس الطريقة القادرية. بالإضافة إلى ذلك، قام السلطان سليمان بزيارة قبر الإمام "موسى الكاظم"؛ أحد أئمة الشيعة الاثني عشرية، وذهب إلى مدينتي كربلاء والنجف وزار مقاميّ الإمامين "علي" و"الحسين" ﷺ.

ولقد تركت هذه الزيارات انطباعات إيجابية عن الدولة العثمانية لدى الشيعة بوجه خاص. إضافةً إلى ذلك، فقد أمر بإحصاء تعداد سكان بغداد، وتطبيق نظام الإقطاعيات هناك أيضًا. كما استولى في الوقت نفسه على المناطق الممتدة

حتى البصرة، والمُشَعْشَع، والقطيف، والبحرين. وكلّف بإحصاء سكان هذه المناطق وتحرير وثائق رسمية لها تحت إشراف "جلال زاده مصطفى شلبي" الذي عُيّن في منصب النّشَانْجِي[٦٠] مكان "سيدي شلبي" الذي أدركه الموت في الطريق جرّاء نقص مؤن الحبوب. وبينما كان السلطان في بغداد، قدّم إليه الشاعر الشهير في ذلك العصر "فضولي" قصيدة شعرية تنتهي بقوله:

"لقد أشهر تاريخك فتح العرب والعجم

وجاء السلطان العظيم إلى برج الأولياء".

ويشير المصراع الأخير من هذا البيت إلى تاريخ فتح بغداد. وبينما كان يستعد للسفر، جاءه خبر مقتل "كِرِيتّي" الذي كان قد أرسله إلى المَجَر على رأس جيش من ثلاثة آلاف جندي، بمنطقة "أَرْدَلْ" - الواقعة غرب ووسط رومانيا حاليًا -، إذ شعر بالقلق إزاء ما صاحب هذه الواقعة من أحداث. فأرسل السلطان رقيبًا بالجيش من بغداد إلى فيينا، كما بعث رسالة نصر إلى البندقية، وأمر بإعدام "إِسْكَنْدَرْ شلبي" الذي كان قد كلّف بعزله من منصبه بينما كانوا في طريقهم إلى بغداد.

كانت العلاقة التي جمعت "إِسْكَنْدَرْ شلبي" -الذي كان اللاعب الأساسي في اختيار الجيش العثماني التوجّه نحو تبريز-بالصدر الأعظم إبراهيم بَاشَا قد أخذت في الفتور بعد أن غضب الثاني من اختيار الأول للطريق الخاطئ للجيش، مما تمخّض عنه معاناة عاشها الجيش بجميع أفراده، حتى أن "إِسْكَنْدَرْ شلبي" أُعفي من وظيفته بينما كان الجيش يتقدم تجاه بغداد. وبحسب وقفية والدة السلطان "حفصة سلطان"، فإن "إِسْكَنْدَرْ شلبي" هو ابن لشخص يُدعى "موسى"، وقد ترعرع في مكاتب المالية، وارتقى حتى وصل إلى منصب رئيس موظفي الدَفْتَرْدَارْ. وفي تلك الأثناء عيّنه السلطان في وظيفة حاجب الصدر الأعظم، لما رأى فيه من خبرة وحنكة. وبحسب ما يرويه أحد المؤرخين، فقد أوصى السلطان الصدرَ الأعظم إبراهيم بَاشَا بحسن معاملة "إِسْكَنْدَرْ شلبي" بقوله:

---

(٦٠) مسؤول التوقيع على خطابات السلطان وفرماناته. (المترجم)

"إن إِسْكَنْدَرْ شَلَبِي رجل دولة خبير وله رؤية صائبة، فلا تخالفه الرأي ألبتة".

وبهذه الطريقة، بدأ الصدر الأعظم في النظر إلى "إِسْكَنْدَرْ شلبي" بصفته منافسًا له. حتى أن بعض الروايات تقول إن الثراء الفاحش الذي كان يتمتع به "شلبي" دفع إبراهيم بَاشَا إلى الشعور بالغيرة والحسد تجاهه، ذلك لأنه امتلك نفوذًا كبيرًا لدى الوزراء بفضل هذه الثروة الطائلة. ويذكر المؤرخ العثماني "غَالِيبُولِي مصطفى علي" أن "إِسْكَنْدَرْ شلبي" كان يرتدي طربوشًا به ثلاثة أوجه مطرّزة بأفخم أنواع الزينة، كما كان لديه ٦٠٠ من العبيد، وعُيّن معظم هؤلاء العبيد فيما بعد في مناصب رفيعة كالصدر الأعظم، والوزير، وأمير الأمراء. ومن هؤلاء الصدر الأعظم أحمد بَاشَا الذي ينقل المؤرخ "عَالِي" قوله:

"...نحن الآن سبعة وزراء في الديوان. وإن مجموع ثروتنا جميعًا لا تبلغ حجم ثورة المرحوم إِسْكَنْدَرْ شلبي...".

وكان "إِسْكَنْدَرْ شلبي" يمتلك من الثروة والنفوذ الكبيرين، حتى أنه عندما مات كان مسجل في دفتر العبيد الخاص به أنه اشترى ٦٢٠٠ عبد. ويُقال أن كل عام كانت تأتي سفينة من مدينة "طِرَابْزُونْ" في الشرق إلى إسطنبول محمّلة بقطع القماش التي يحتاجها عبيده وجواريه. كما أنه عندما كان يخرج في سفر، كان يرافقه حشد كبير من الخدم والحشم قوامه ١٢٠٠ شخص. ويُلاحظ أن هناك بعض الأشخاص بدؤوا في نشر الشائعات مستفيدين من الخلاف الذي دبّ بين "إِسْكَنْدَرْ شلبي"؛ صاحب النفوذ والشهرة الكبيرة، والصدر الأعظم إبراهيم بَاشَا أثناء رحلة تبريز. وبطبيعة الحال، فقد أفضت تلك الشائعات إلى تأجيج الخلاف الناشب بين الطرفين. وقد أقدم دَفْتَرْدَارْ دمشق "نقّاش علي أفندي"، الذي يُفهم أنه كان يقف في صف إبراهيم بَاشَا ويرغب في القضاء على "إِسْكَنْدَرْ شلبي"، أقدم على اتخاذ بعض التدابير، إذ أشاع في ليلة من الليالي أن الخزينة على وشك أن تُسرق، وعليه فقد أُعدم ٢٠ رجلًا من مناصري "إِسْكَنْدَرْ شلبي". كما كان "علي أفندي" يذيع دائمًا لدى إبراهيم بَاشَا أن "إِسْكَنْدَرْ شلبي" يرتشي ويرتكب العديد من الموبقات.

ولقد حدثت واقعة أخرى أذكت نيران الحقد والكراهية بين الجانبين: فبينما كلّف الصدر الأعظم المُنادين بالإعلان عن وصوله إلى أذربيجان، فبدأ المنادون في النداء بعبارة؛

"أمْر السلطان القائد"

فتدخل "إِسْكَنْدَرْ شلبي" وأسكتهم بقوله:

"لا تقولوا السلطان القائد، فنادوا هذا "أمْر حضرة القائد".

وعليه، بدأ الخلاف في الازدياد يومًا بعد يوم. وبناءً على ذلك السبب، فقد استخدم إبراهيم بَاشَا دفاع إِسْكَنْدَرْ بَاشَا عن فكرة السير نحو تبريز في السابق، كورقة رابحة في التخلص منه. ووفق ما يرويه بعض المؤرخين في العهد العثماني، فقد وجّه السلطان سليمان سؤالًا إلى الصدر الأعظم عندما وصلوا إلى تبريز قال فيه:

"ما هو سبب وصولنا إلى أرض العدو في حملة مهمة كهذه وسط فصل الشتاء مما عرّض جيشنا إلى مخاطر جمّة؟"

فأجابه إبراهيم بَاشَا إجابةً معاتبة قال فيها:

"وهل أنا رجل ذا أهمية؟ فلقد أوكلتهم أمور الحل والعقد إلى عبدكم إِسْكَنْدَرْ شلبي، وعندما انصرفنا من أمامكم، أوصيتم بأن يُمنح وظيفة مسؤول المالية (دَفْتَرْدَارْ). وعليه، فقد تحرك الجيش بناءً على تعليماته، وحدث ما رآه الجميع".

وكان هذا الجواب سببًا رئيسيًا في سقوط "إِسْكَنْدَرْ شلبي" من نظر السلطان. وفي يوم ١٣ آذار/مارس ١٥٣٥م، وبينما كانت التجهيزات جارية لعقْد جلسات الديوان، أصدر السلطان سليمان فرمانًا بإعدام "إِسْكَنْدَرْ شلبي" قبل أن يصل كلٌّ من "إياس" و"قاسم" بَاشَا إلى الديوان. وقد نُفِّذ هذا الحكم على الفور في مكان يُطلق عليه "آت بازاري" بالمدينة، وأُدخلت أموال "شلبي" وعبيده إلى خزينة الدولة.

وفيما كان الجيش العثماني في بغداد، كان الشـاه "طهماسب" متنشيًا للغاية لتفاديـه السـقوط كضحية لأول خطر يواجهه من جانـب العثمانيين. وقد اعترف الشـاه بأن خصمه الأساسي ليس السلطان سليمان (وبتعبيره "حضرة السلطان")، ولهذا السـبب أرسـل خطابًا إلى وَالِي بغداد "محمد خان" يأمره بإخلاء المدينة، وقال في الخطاب:

"إنَ عدويّ اللدود هو عُلَمَا بَاشَا".

كما أمر الشـاه بقتل ابن عمته "شـاملو حسـين بَكْ" لاعتقاده أنه يسـتهزأ به، ولشـكه بصدقـه وولائه له. وقد أوقعت هذه الحادثة الريـب في قلب أمير أمراء خراسـان "غازي خان"؛ الذي كان من أمراء "تَكَه لُو"، إذ أدرك أن دور التخلص منـه قد حـان، فاضطر للهرب بصحبة نفر من رجاله إلـى تبريز. وعليه، فقد بقي إلى جانب الشـاه شـخص واحد فقط من أمراء "تكه لو" وهو وَالِي بغداد السابق "شرف الدين أوغلو محمد خان". وقد لجأ "غازان خان" إلى العثمانيين، وأخبر "عُلَمَا بَاشَـا" بأن الشـاه في طريقه نحو تبريز. فأرسـل "عُلَمَا بَاشَـا" إلى السلطان يخبره بهذه الأنباء، ثم انسـحب برفقة "ذُو الْقَادِرلي محمد خان" وسـائر الأمراء العثمانييـن الآخريـن إلـى مدينـة "شـنب غـازان (*Şenb-i Gazan*)" فـي البداية، ثـم إلـى قلعـة "وَانْ" المحصنة بعـد ذلك، لعلمه بأنـه لن يسـتطيع الصمود في تبريـز فـي مواجهة قوات الشـاه. فوصل الشـاه إلى تبريـز، وتعقّب "عُلَمَا بَاشَـا" حتى ولاية "وَانْ" وحاصرها، وقطـع السبل المواصلة إليها، وقضى فصل الشتاء محاصـرًا لهـا. وبـدوره، دافـع "عُلَمَا بَاشَـا" عـن "وَانْ"، ولـم يسـمح للصفويين بالاقتراب من قلعتها مستخدمًا نيران المدافـع والبنادق، حتى أجبرهم على البقاء خارج المدينة. وفي مقابل ذلك، اكتفى الصفويون بالسيطرة على الطرق المؤدية إلـى وان، ومحاصـرة المنطقة المحيطة بها، ولم يسـتطعوا الاقتراب من قلعتها. وكان "عُلَمَا بَاشَـا" المتواجد داخل القلعة، يبعث الرسـل إلى السـلطان سـليمان بشكل متواصل يطلب منه المدد والعون.

وفي يوم ٢٣ آذار/مارس عام ١٥٣٥م وصل مبعوث "عُلَمَا بَاشَا" إلى السلطان، وأبلغه الوضع في وان. فاتخذ السلطان قرارًا بالسير صوب تبريز، وغادر بغداد بتاريخ ٢٧ رمضان ٩٤١هـ (١ نيسان/أبريل ١٥٣٥م). ولعلمه بطبيعة الأراضي الموصلة إلى تبريز جيِّدًا، أمر السلطان بتقسيم قوات الجيش إلى ثلاثة أفرع، يتبع كل واحد منها الآخر بفارق منزل واحد. وفضّلت القوات العثمانية السير في طريق ممهدة بشكل أكثر تجاه مدينة "كَرْكُوكْ (*Kerkük*)"، واستثنت السير في طريق بغداد. وعندما وصل الجيش عند منطقة "جوكتبه"، اضطر للانتظار هناك لمدة أسبوع حتى يلحق بهم ركب الجنود الذين كانوا عائدين من مكان قضاء فصل الشتاء. ومن ثم تحرك الجيش من "جُوكْتَبَه (*Göktepe*)" حتى وصل إلى "قِزِلْدَرَه (*Kızıldere*)". وبينما كان الجيش العثماني كذلك، وصل رسول "عُلَمَا بَاشَا" وأبلغهم أن الشاه عاد إلى "وَانْ" مرة أخرى بعد أن كان قد انسحب فور تحرك الجيش العثماني من بغداد، وأن شقيق الشاه "سَامْ مِيرْزَا (*Sâm Mirza*)" في طريقه قادمًا إلى السلطان سليمان حتى يقدم فروض الطاعة والولاء. وفي تلك الأثناء، وصل الرسول الثالث الذي أرسله ملك فرنسا إلى السلطان يُدعى "جان دي لا فوري (*Jean de la Fôret*)". وقد دعا هذا الرسول السلطان سليمان للاتحاد مع فرنسا لقتال إمبراطور إسبانيا. هذا إضافةً إلى أن الرسول طلب من السلطان مساعدة بقيمة مليون قطعة ذهبية للإعداد لهذه الحرب، ورجاه أن يحرّك الأسطول العثماني صوب جزيرتي "سردينيا (*Sardunya*)" و"صقلية". وقد استقبل السلطان السفيرَ الفرنسي استقبالًا حارًّا، وأبقاه جواره حتى وصل الجيش العثماني إلى إسطنبول. وعندما وصل الجيش إلى منزل "صاروجا قاميش (*Sarucakamış*)" بتاريخ ٢٢ حزيران/يونيو، جاء رسول الشاه "تَاجْلُو خَانْ (*Taclu Han*)" إلى السلطان، وعرض عليه إبرام معاهدة سلام وتعيين سفراء لدى كلا الدولتين، إلا أن السلطان ردّ رسول الشاه لعلمه أنه إنما أتى للاطلاع على الوضع داخل الجيش العثماني. وفي النهاية، وصل السلطان على رأس الجيش إلى تبريز عبر "مراغة (*Meraga*)- أوجان (*Ucan*)" بتاريخ ٢٨ ذي الحجة (٢٨ حزيران/يونيو). ومكث الجيش العثماني لبرهة

في "سادآباد (*Sâdâbâd*)"، ومن ثم دخل بعد ذلك تبريز، وكانت هذه المرة الثانية التي يدخلها فيها. وقام السلطان بالتجوّل في قصر الشاه، وأمر بتنظيف جامع "آق قويونلو سلطان حسن"، وكلّف بفرش السجاد، وإقامة الصلاة به. كما مُنح الجنود العطايا، وحصل أركان الدولة على المراتب العليا. وبينما هم كذلك، أُدخل تغييرٌ على طريقة تشكيل الديوان السلطاني. فمن الآن ولاحقًا سيُسمح فقط لأمير الرُومَلِي - وهو من أعضاء الديوان - بالمشاركة في جلسات الديوان دائمًا. وأما أمير الأناضول، فسيحضر جلسات الديوان إذا لزم الأمر، فيما أُعفي سائر الأمراء الآخرين من حضور تلك الجلسات.

وعندما دخل السلطان تبريز للمرة الثانية، نما إلى علمه أن الشاه يتواجد بالقرب من مدينة سلطانية، فتحرك من تبريز لملاحقته بتاريخ ١٩ المحرم (٢٠ تموز/يوليو). ووصل إلى "درجوزين (*Dergüzin*)" مرورًا بـ"أوجان - قزل اوزن (*Kızılözen*)- سلطانية - حيدر نبي (*Haydarnebi*)- تحت سليمان (*Taht-ı Süleyman*)". وخلال تلك الرحلة، أُعلن عبر المنادين أن السلطان قد تبنّى "سَامْ مِيرْزَا" شقيق الشاه، ومنحه المنطقة الواقعة وراء إقليم "قِيزِيلْ أُوزَنْ". حتى إنه يُروى أن الشاه "طهماسب" عندما سمع هذا النداء، قال:

"ونحن أيضًا تبنّينا ابن ذُو الْقَادِر، فما الذي تغيّر؟"

ومكث الجيش العثماني في "درجوزين" لمدة أربعة أيام، إلا أنه لم يعثر على أي أثرٍ للشاه وجنوده. وفي نهاية المطاف، آثر السلطان العودة إلى تبريز بدلًا من التقدّم أكثر دون فائدة. ويروي بعض المؤرخين المعاصرين أن السلطان سليمان عندما كان في تبريز أرسل أهلَ السُنّة الذين بعثوا إليه خطابات يستنجدون به من ظلم الشاه إلى الأناضول، وأسكنهم مدينة "أَرْضَرُومْ"، ووقاهم من ظلم الشاه. ولهذا السبب يعزي البعض تشابه اللهجة التي يتحدث بها سكان المنطقة الواقعة بين ولايات "أرضروم" و"ريزة (*Rize*)" و"طِرَابْزُونْ"، بتلك التي يتكلم بها أهل تبريز، إلى هذه الحادثة التاريخية.

تيقن السلطان سليمان من أن البقاء أكثر في تبريز لم يعد ذا فائدة، فأخلى المدينة إيذانًا منه بانتهاء حملته العسكرية بشكل كبير. وتحرك الجيش العثماني من تبريز يوم ٢٧ آب/أغسطس، ومرّ بالقرب من "ميريند (*Merend*)"، ومن هناك إلى "خوي (*Hoy*)" ومن ثم إلى "أرجيش (*Erciş*)". وعندما وصلوا إلى "أَخْلَاطْ"، أُرسل "عُلَمَا بَاشَا" إلى مدينة "وَانْ". وقد أُسّست ولاية "أَرْضُرُومْ" في تلك الأثناء، ومنح حكمها إلى "ذُو الْقَادِرلي محمد خان". وكان السلطان يهدف إلى منع تقدم الصفويين عند حدود مدينة "وَانْ" على أقل تقدير، بعد أن رأى أن أمر السيطرة على عاصمتهم تبريز صار بعيد المنال. هذا إضافةً إلى أن هذه السياسة الواقعية أعلنت عن نفسها مرة أخرى بطريقة واضحة للغاية في الحملات اللاحقة. وفيما كان الجيش العثماني يعود أدراجه إلى أراضيه، تحرك الشاه "طهماسب" على الفور، ودخل "تبريز" في البداية، ومن ثم انتقل إلى "ميريند" و"خوي". وأمر "بَهْرَامْمِيرْزَا" بالهجوم على جناح الجيش العثماني الذي يقوده "دونبوللو (*Dünbüllü*) حاجي بَكْ" ويعتبر الجناح التابع للجيش. وسار هو وجنوده نحو مدينة "وَانْ" لقتال "عُلَمَا بَاشَا". فوصل إلى مشارف "وَانْ" بتاريخ ١٨ أيلول/سبتمبر ١٥٣٥م، وعلم أن "عُلَمَا بَاشَا" انسحب إلى "واسطان". وفي النهاية التقى الجيشان وهُزم جيش "عُلَمَا بَاشَا" يوم ٢٢ أيلول/سبتمبر عند مضيق "قُوزْجُونْ قِيرَانْ (*Kuzgunkıran*)" في مدينة "جواش (*Gevaş*)"، على الرغم من تلقيه دعمًا من أمير "ديار بكر" محمد بَاشَا، واستطاع بشق الأنفس الوصول إلى الجيش العثماني الذي كان قد تحرك من مدينة "طاطفان (*Tatvan*)". وبينما كان الجيش العثماني متوجهًا إلى "آميد" في ٢٠ تشرين الأول/أكتوبر، ومن هناك إلى "قونيا" مرورًا بطريق "حلب - أنطاكية - جولك بوغازي (*Gülekboğazı*)- أولو قيشلا (*Ulukışla*)"، كان الشاه قد احتل "وَانْ" و"أرجيش"، وعيّن "صوفو أوغلو (*Sofuoğlu*) أحمد سلطان" حاكمًا على "وَانْ". ثم عاد إلى "تبريز" وقضى بها فصل الشتاء. وأما السلطان سليمان فتحرك من قونيا ووصل إلى إسطنبول بتاريخ ١٤ رجب ٩٤٢هـ (٨ كانون الثاني/يناير ١٥٣٦م).

لقد برهنت هذه الحملة العسكرية للسلطان سليمان على أنه لن يستطيع القضاء على الصفويين بسهولة ويسر كما كان يرغب. وكانت الفائدة الوحيدة التي تحصّل عليها العثمانيون من هذه الرحلة التي أُطلق عليها "سفر العراقيْن" لدخول الجيش العثماني عراق العرب وعراق العجم، هي ترسيخ دعائم سيطرة الدولة العثمانية في بغداد وما حولها. وذلك لأنه كما أوضحنا سالفًا، فما إن انسحبت القوات العثمانية، استولى الصفويون على تبريز وما جاورها مجددًا. كما أثبتت هذه الحملة بكل وضوح أنه لن يمكن اقتلاع جذور الدولة الصفوية. وفي واقع الأمر، فإن الحملات العسكرية التي قام بها الجيش العثماني في تلك المنطقة كبّدته خسائر فادحة في الأموال، وأصابت جنوده مشقة كبيرة. وبالرغم من ذلك، كان الصفويون يزيدون من تلك المشقة على الجيش العثماني. فلم يكونوا يخرجون لمواجهة العثمانيين، بل كانوا يضرمون النار في الأماكن التي يمر منها الجيش العثماني، ويجفّفون مياه تلك الأماكن، ويهجِّرون منها أهلها، ولم يكونوا يتركوا بها حتى الأعشاب لتقتات عليها خيول العثمانيين. وستكون الغاية المقصودة من وراء الحملات العسكرية التي سيقوم بها العثمانيون فيما بعد هي استعادة مدينة وان، وتشكيل حاجز أمام تقدم الصفويين في تلك المنطقة. وكان الصدر الأعظم إبراهيم بَاشَا هو من سيدفع ثمن الفاتورة الباهظة لتلك الرحلة. وقد تأثّر السلطان سليمان بالنزاعات الداخلية في القصر، وأمر بإعدام صديقه المقرّب إبراهيم بَاشَا في القصر على حين غِرّة (٢١-٢٢ رمضان ٩٢٤هـ / ١٤-١٥ آذار/مارس ١٥٣٦م).

إعدام إبراهيم بَاشَا

استقبلت "خُرّم سلطان"، التي أصبحت صاحبة الكلمة الأولى والأخيرة في جناح الحَرَم بالقصر، وأبناؤها السلطان سليمان لدى وصوله إلى قصر "طُوبْ قَابِي" بشوق كبير. فقد قضى أطول مدة خارج القصر للمرة الأولى، إذ أرهقته هذه الحملة العسكرية الطويلة والشاقة، كما أنه لم يستطع إحراز نصر يُذكر ضد الصفويين، وكان عزاؤه الوحيد هو بسط النفوذ العثماني على مدينة

بغداد. وبينما كان السلطان سليمان يأمل في الاستراحة قليلًا في قصره، سقط في غياهب المشاحنات العائلية المندلعة في القصر. فلم يكن تحويل "خُرّم سلطان" موازين جناح الحَرَم في القصر لصالحها، سيصب في مصلحة منافسها الوحيد على الساحة إبراهيم بَاشَا. وذلك في الخطابات التي أرسلتها إليه أثناء حملة "العراقيْن" العسكرية. وربما كان السلطان قد أخرج إبراهيم بَاشَا من حساباته بشكل تام جرّاء التصرفات التي أقدم عليها خلال تلك الرحلة، وذلك بعد أن تيقّن من أن الحملة لم تصل إلى هدفها المنشود.

وعلى الرغم من أن السلطان جمعته أحداث مصيرية للغاية بـ"إبراهيم بَاشَا" حتى ذلك اليوم، فإن القرب الشديد من السلاطين يمكن أن يفضي في نهاية المطاف إلى نتائج خطيرة كهذه. كما فعل السلطان سليمان في نهاية المطاف، وأوضح للصدر الأعظم إبراهيم بَاشَا بشكل مؤلم كيف أنه حاكمٌ يجب احترامه وتبجيله. وآثر السلطان التضحية بأعز صديق له الذي لازمه منذ أن كان أميرًا جرّاء بعض الشائعات المحتمل انتشارها والتطورات السلبية داخل القصر.

وقد أُصيب مؤرخو ذلك العصر بصدمة كبيرة بعد إعدام إبراهيم بَاشَا داخل القصر في لحظة لم يكن هو نفسه يضعها في حسبانه. ولهذا السبب، لم يفصح أي واحد منهم عن الأسباب الحقيقية الكامنة وراء هذا الحكم، وأخذوا في تحليل الدوافع المؤدية إلى تنفيذ هذه العقوبة بحقه من خلال بعض الاستنتاجات التي لجأوا إليها، والتي لا علاقة لها بالواقع.

ويربط مؤرخ ألّف كتابًا في مطلع القرن الثامن عشر عن تلك الأحداث، إعدام إبراهيم بَاشَا بقوله إن حصوله من السلطان على إذن بالقيادة للتصرف باستقلال تام في كافة أمور الدولة وشؤونها، بخلاف صلاحيات الحاكم مثل زيادة رواتب الموظفين ومنح المكافآت والعطايا، كل ذلك دفعه للشعور بالغرور والكبر، وفي النهاية أفضى إلى الحكم عليه بالإعدام بعد أن كان يحظى بمكانة رفيعة لدى السلطان. وأما المؤرخون الآخرون فيسردون بعض النقاط الأساسية التي أدّت إلى تلك الواقعة، ويمكن تلخيص تلك النقاط في التالي:

أ- لقد أساء إبراهيم بَاشَا التصرف في الصلاحيات التي مُنحت له، حتى إنه أضاف إلى لقبه لفظ "سلطان" بتشجيع من "عُلَمَا بَاشَا". إذ أسدى "عُلَمَا خان" له النصح بقوله وفقا لما حكاه جلال زَادَه (*Celalzâde*):

"في الوقت الذي يتمتع فيه الأمراء والخانات التابعون لشاه العجم بلقب سلطان، فكيف لصدر أعظم الدولة العثمانية التي تحكم أراضي شاسعة في الشرق والغرب، ألا يحصل على لقب سلطان؟ "

فأثّر ذلك كثيرًا في إبراهيم بَاشَا، وتجرّأ على وضع لقب سلطان جنبًا إلى جنب مع لقب القائد وهم عائدون من بغداد. حتى إنه رفع مكانته إلى درجة أصبح بمقدوره في ظلها إرسال الفرمانات باسمه.

ب- لم يولِ إبراهيم بَاشَا اهتمامًا بالنظم واللوائح أثناء حملة "العراقيْن" العسكرية، وبدأ في التصرف كما يحلو له على طريقته الخاصة. كما لم يلقِ بالًا للتشاور مع رجال الدولة في الديوان. حتى إن بعض الروايات تقول إنه طرد من المجلس كل من اعترض عليه وقال له:

"ها هو الكتاب، ها هو القرآن الكريم".

وبحسب ما يفيد به المؤرخ "جلال زَادَه":

"... إن أصحاب النوايا الخبيثة أضروا بالبَاشَا كما يضر العقرب ضحيته بسمه، ولهذا السبب فقد أُعدم البَاشَا...".

ج- أسهمت واقعة إعدام "إِسْكَنْدَرْ شلبي" في صدور حكم بالإعدام كذلك على إبراهيم بَاشَا كما شرحنا سابقًا. فلقد أفضت هذه الواقعة إلى برودة مشاعر السلطان تجاه الصدر الأعظم بكل ما تحمله الكلمة من معانٍ. كما يضيف بعض المؤرخين العثمانيين سببًا آخر إلى هذه الواقعة: فيروون أن السلطان رأى في منامه حُلمًا في الليلة التي أُعدم فيها إِسْكَنْدَرْ بَاشَا، إذ هاجمه إِسْكَنْدَرْ بَاشَا وقال له:

"لقد ظلمتني دون وجه حق وأطعت نصائح شخص فاسد، فلماذا سلبتني حياتي ونسيت مدة خدمتي لك؟".

وهمّ إلى خنق السلطان بعمامةٍ كان مُمسكًا بها. فاستيقظ السلطان من منامه والعرق ينهمر من على جبينه، ورفع يديه إلى السماء يدعو على إبراهيم بَاشَا ويقول

"إلهي! إن كان إبراهيم قد دفعني لقتل شخص لا ذنب له، فلا تمهله حتى يكمل عامه هذا، وقدّر له الإعدام هو أيضًا!"

ولقد حاول مؤرخو تلك الحقبة تصوير هذا الحلم على أنه أدّى في النهاية إلى شعور السلطان بالحزن والندم لمقتل "إِسْكَنْدَرْ شلبي"، وأنه وجّه أصابع الاتهام صوب إبراهيم بَاشَا في هذه الواقعة.

د- إن الأموال الطائلة التي صرفها إبراهيم بَاشَا خلال رحلة "العراقيْن" رفعت من مستوى الشكوك ضده، وانتشرت شائعات تروّج لفكرة أنه استخدم هذه الأموال لحشد مؤيدين له. وقد شعر السلطان بالشك والريبة تجاه إبراهيم بَاشَا لصرفه ٨٠ ألف دينار، وقال لـ"أَيَاسْ بَاشَا":

" لقد تأكدنا من تجرّؤ إبراهيم على إنفاق آلاف الدنانير على الأوغاد طمعًا في السلطة، كما أثبتت التحقيقات صدق هذه الواقعة".

هـ- إن "خُرّم سلطان" كانت هي الشخص الرئيسي الذي دفع إبراهيم بَاشَا إلى التهلكة، فهي كانت تطمح كي يتولّى ابنها السلطنة عند موت السلطان سليمان. بيد أن ابن ضَرَّتها الأمير مصطفى كان هو الأكبر سنًا والأقرب إلى العرش. كما كان إبراهيم بَاشَا داعمًا لتولّي مصطفى مقاليد السلطنة. وربما كان الخلاف في وجهات النظر بين إبراهيم بَاشَا و"خُرّم سلطان" سببًا في سعيها الدءوب على تحريض السلطان على الصدر الأعظم، وإيهامه بأنه يسعى لانتزاع الحكم منه.

و- وفي نهاية المطاف، أضحت الأخطاء التي ارتكبها خلال رحلة "العراقيْن" ذريعةً كافية لصدور حكم الإعدام بحقه. وكان على رأس تلك الأخطاء القاتلة: محاولته الإغارة على القلاع والقبائل المتواجدة في أطراف الأراضي الإيرانية

النائية مما أنهك الجيش واستنفد قواه، وفشله في هزيمة شاه إيران نتيجة "تصرفه بفكر العجم، لا بفكر الأتراك".

وفي حقيقة الأمر، فإن محاولة "عبدٍ" ما إظهار نفسه في الواجهة، والسعي للتساوي بالسلطان صاحب السلطة المطلقة في الحكم، كانت لعبة خطيرة للغاية ومغبّتها مُهلِكة لصاحبها. ولقد أيّد مؤرخون عثمانيون لاحقون فكرة أن إبراهيم بَاشَا دفع ثمن قربه لهذه الدرجة من السلطان. ولا يُعلم حتى اللحظة ما الذى كان يفكر فيه السلطان سليمان وقتها، وكيف أصدر فرمانًا بإعدام إبراهيم بَاشَا. وإن أمْر السلطان بقتل إبراهيم بَاشَا بشكل مفاجئ وهو في القصر من دون إبعاده عنه، ربما يكون دليلًا قطعيًا على أن البَاشَا نفسه لم يكن يتوقع أن يتعرّض لعقوبة كهذه من السلطان. وقد كتب إبراهيم بَاشَا خطابًا إلى زوجته أثناء تواجده في تبريز، أوصاها خلاله بعدم مغادرة القصر لأي سبب كان إلا في الحالات الطارئة كالموت أو المرض، وذلك جرّاء الصراعات التي كان يشهدها القصر في تلك الفترة، كما أخبرها بأنه سيفتح معها ذلك الموضوع لاحقًا عندما يعود من تبريز، وهو ما يظهر بوضوحٍ كبير الدرجة التي وصلت إليها المنافسة الشرسة بين أفراد القصر من العائلة الحاكمة. وبعد أن أُعدم الصدر الأعظم، أُخرج جثمانه من القصر، ووُري الثرى في مكان غير معلوم.

نعش إبراهيم باشا برغالي (المقبول/ المقتول)، حيث يُنقل إلى المكان الذي سيدفن فيه بعد أن أخرج سرا من القصر، ووضع في زورق

لقد ترك قرار إعدام إبراهيم بَاشَا أثرًا بالغًا في نفسية السلطان سليمان بما سيؤدي بشكل محتمل في إحداث تغييرات جذرية في مزاجه. وفي تلك الأثناء كان يتابع عن كثب الأعمال التي يقوم بها "بَرْبَرُوسْ خير الدين بَاشَا" في مياه البحر الأبيض المتوسط، ويخطط لقيادة حملة عسكرية لفتح إيطاليا الذي كان يطمح إليه منذ زمن بعيد. وعليه، فقد وجّه سابع حملة كبيرة قام بها حتى ذلك التاريخ، نحو جزيرة "كُورْفُو (*Korfu*)" اليونانية، إذ كانت هذه الرحلة بمثابة إعداد لحملة كبيرة لفتح الأراضي الإيطالية. وقام الأسطول العثماني بإجراء مناورات مشتركة مع نظيره الفرنسي في البحر للمرة الأولى، بما شكّل جوابًا نديًّا لإمبراطور إسبانيا "كَارْل الخامس" الذي خرج في حملة عسكرية إلى شمال إفريقيا، واستولى على مدينتي "حلق الوادي (*Halkulvâdî*)" و"تونس" التونسيتين اللتين كانتا يدافع عنهما بَرْبَرُوسْ خير الدين في شهر تموز/يوليو عام ١٥٣٥م.